المحور الرابع

ديناميةالتأصيل النسقى

يدرس هذا المحور حصيلة الطرح الخاص للمفهوم البلاغى عند الجاحظ، والذى تولَّد من خلال رؤيته المنهجية، والتى وسمت أعماله، ورسمت دينامية تشكيلية للرؤية النسقية لهذا الطرح.

لقد وَضَعَنَا الجاحظ أمام مجموعة من الأنساق البلاغية، التى تكونت بفعل رؤية التناول عنده، ولكى تتفاعل هذه الأنساق يجب ألا تأتى مجردة - أى تحصر فقط دونما دراسة -، فإن مثل تلك الأعمال يضعها بعيدًا عن وظيفتها، وموقعها، خاصة وقد رأينا أن الجاحظ يعنى بمذهبه التجميعى الخاص، فكل ما يأتى به من شواهد دالة على نسق معين يُفيد منهجه.

ولقد تولدت هذه الأنساق من الاتساع المشار إليه فى المحور السابق من الامتدادين «الخارجى والداخلى»؛ فالامتداد الداخلى المترابط – كما رأينا - أفرز أنساقًا معينة، جاء بها الجاحظ وأعطاها دلالاتها الثرية واتصلت بواقع «دينامى» أنتج من التفاعل بين موضوعات الكتاب بعضها البعض.

لقد حرص الجاحظ على الترابط بين الأنساق؛ فاعتمد على الشواهد الدالة عما يريده والتى تسير وفق سياق معين، تعبِّر عنه، وتضيف إليه، وهذا أمر تفرَّد به فى منهجه الدقيق.

لهذا كانت أنساقه متداخلة مع موضوعاته، وإذا فُصلت كانت أبعد عن إعطاء الفائدة التى خصَّها بها. فالشواهد المجموعة عنده متلاحمة مع الأنساق – المصطلحات -. لأن طرحها فى «البيان والتبيين» كان من خلال أبعاد عملية مقصودة، تبدأ منذ الوهلة الأولى فى هذا الكتاب وتستمر حتى نهايته.

ولقد أغرت هذه المصطلحات «الأنساق» بكثرتها وتعددها بعض الدارسين لدراستها، واستخلاصها والتركيز عليها وحدها؛ بعيدًا عن وظائفها، فكانت هناك بعض الدراسات التى

تقوم على التجريد، وتعتمد فقط على الاهتمام بالاسم دون ربطه بأبعاده (الدينامية)؛ التى تثرى المصطلح وتجعله فعَّالاً[1].

لقد أضاف الامتداد الخارجى للبيان والتبيين أنساقًا أخرى؛ فتشابكت المصطلحات، وكثُرت وتداخلت. والجاحظ عند عرضه للشواهد والأقوال التى تؤكد رؤيته، كان ينظر إلى هذا الاتصال بالرؤى البلاغية الممتدة من خارج حدود «البيان والتبيين»، لأن لكل منها رؤية إبداعية تمثل شمولية المجموع الكلى (الفصاحة + البيان + البلاغة)، الأمر الذى جعلها تَرِد كثيرًا فى التناول السابق، لكنه كان تناولاً لا متفرقًا.

ولهذا الامتداد (الخارجى) تأثيره على اهتمام الجاحظ بأنساق أخرى جدَّت عنده، تضاف إلى أنساقه، ولذا كان من الضرورى فى هذه الدراسة أن نُفرد لها مساحة خاصة، تربطها بدينامية التواصل العلمى، حتى لا تأتى كمتفرقات لا قيمة لها، تستوى فى ذلك الأنساق التى جاء بها الجاحظ، والأنساق التى نتجت من الاتصال الخارجى.

ولأن هذه الأنساق متشعِّبة ومتعددة، فإننا من خلال الاستقصاء القائم على التتبُّع والإحصاء وجدنا أن هذه الدراسة يجب أن ترتكز على ثلاثة نقاط؛ هى (الفصاحة، والبيان، والبلاغة).

وقد وجدنا أن هذه النقاط تمثِّل خطًّا واحدًا، وترابطًا وثيقًا، وليس هذا التقسيم إلَّا من قِبَل الدراسة التى تؤتى بالنتائج المبينة لارتباطها، وليس لتفرقها – كما حدث فيما بعد –.

---

(1) انظر على سبيل المثال في ذلك: ميشال عاصى؛ **مفاهيم الجمالية والنقد فى أدب الجاحظ**، مؤسسة نوفل، بيروت – لبنان. ولقد أشار فى الكتاب كله إلى المصطلحات التى برزت عند الجاحظ؛ خاصة فى كتابه البيان والتبيين، وذلك دونما ربطها بالتحليل الخاص بها فى سياقها.
وينظر كذلك الشاهد البوشيخى فى كتابه «**مصطلحات نقدية وبلاغية فى كتاب البيان والتبيين**»، والكتاب أيضًا قائم على تجربة المصطلحات المفردة دون سياقها [والكتابان يختلفان فى المنهج والتناول عن كتابنا هذا؛ حيث تأتى المصطلحات عندنا مع التحليل والدرس، أما فى الكتابين هذين فالمصطلحات مفردة مجردة].

النقطة الأولى – الفصاحة وأنساقها :

يهتم الجاحظ باستخدام نسق الفصاحة ويأتى بأبعاده واشتقاقاته؛ فيُشير إلى مادتها اللغوية (الإفصاح، وأفصح، وفصح)، وكلها تعبيرات نراها مقصودة عنده، فلم تأت عفو الخاطر، وإنما جاءت مرتبطة بشواهدها وبمكانتها.

ويعنى نسق الفصاحة فى رؤية الجاحظ: «الإظهار والإبانة، وقوة التعبير ووضوح الدلالات، وكلها أمور البلاغة ذاتها».

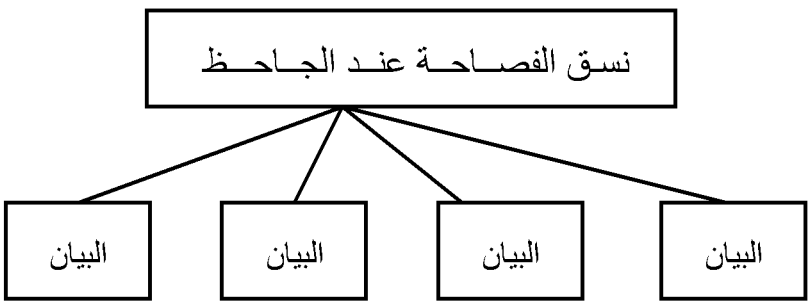

إنَّ هذا النسق قد ولَّد المفهوم الدال عليه من خلال الاستخدام الخاص، ومن خلال وجوده أيضًا فى واقع معين، ويؤكِّد الجاحظ هذا النسق بمفهومه من خلال الاستشهادات الدالة على ذلك، ولاسيما القرآن الكريم؛ يقول: «وسأل الله عَزَّ وَجَلَّ موسى بن عمران عليه السلام؛ حيث بعثه إلى فرعون بإبلاغ رسالته، والإبانة عن حُجَّته، والإفصاح عن أدلته، فقال حين ذكر العُقدة التى كانت فى لسانه، والحبسة التى كانت فى بيانه: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ [طه:27، 28] »[1].

ومن هذا القول نستخلص معنى حل عُقدة لسان موسى عليه السلام وارتباط ذلك بالفصاحة، ثم ارتباط الفصاحة ذاتها بهذه الأمور:

---

(1) الجاحظ؛ **البيان والتبيين**، الجزء الأول، ص8.

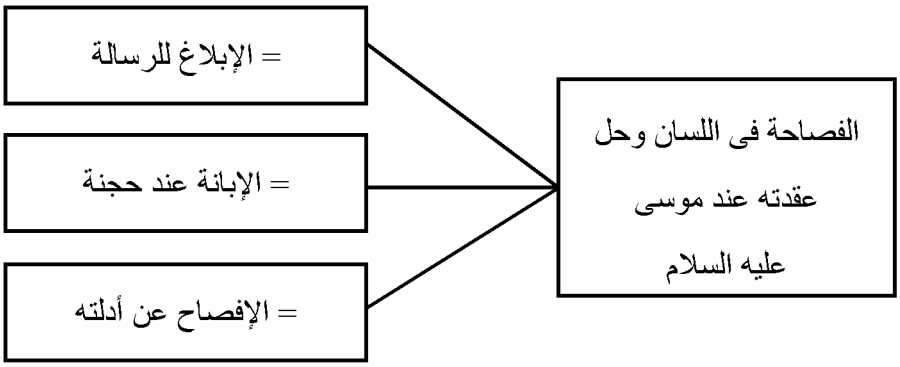

وكلها أمور لا تتصل بعيب اللسان وحده كما فُهمت، فكل هذه الإشارات أمور تحدد المقصود من الفصاحة باعتبارها القدرة الإقناعية ذاتها.

ويستخدم الجاحظ شواهده العملية – الاشتقاقية – لهذا النسق؛ فيأتى بما يدل على الموازنة والتفضيل، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ ﴾ [القصص:34].. ثم يأتى بما يدل على القيمة المتولدة من هذه الموازنة فى اتساع الصدر –وهو القلب – بالقول وانشراحه، مما يؤثر فى طلاقة القول واستمراره، ثم ظهوره وبيانه، فيعرض الجاحظ الشاهد الدال على ذلك من خلال قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى ﴾ [الشعراء:13].

ويضم الجاحظ هذين الشاهدين فى وحدةٍ واحدة تؤدى وظيفة إبلاغية واضحة، تظهر هذه الوظيفة من خلال تعليقه نفسه، وتدخله فى شرح دلالة الشاهد القرآنى الكريم؛ فيقول: «بأن قول موسى فى الآية السابقة كان رغبة منه فى غاية الإفصاح بالحُجَّة، والمبالغة فى وضوح الدلالة، لتكون الأعناق إليه أميل، والعقول عنه أفهم، والنفوس إليه أسرع، وإن كان قد يأتى من وراء الحاجة ويبلغ أفهامهم على بعض المشقة»[1].

(1) المرجع السابق، ص8.

إنَّ الجاحظ فى فهم هذا النسق - المصطلح - البلاغى المهم يجعلنا نربط بين رغبة موسى فى اصطحاب هارون أخيه معه لفصاحته الظاهرة، وبين طلاقة الصدر؛ والذى يعبر عنها بطلاقة القول والإفصاح، فكان الإفصاح – هنا - بمثابة الأحداث والأفعال المعبرة على تعدد الدلالات.

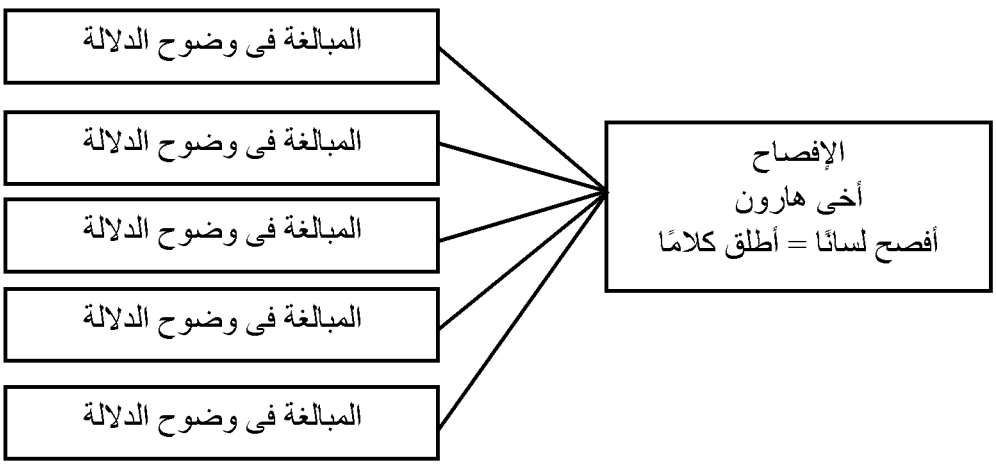

الفصاحة واللغة :

وبسبب هذه الوظائف المتعددة للفصاحة؛ فقد جاءت مقترنة باللغة ومكانتها وقدرتها، إنها وصف لطبيعة اللغة المطلوبة للإبلاغ، ولهذا وُصفت اللغة بأنها فصيحة، والدليل على ذلك ما ساقه الجاحظ من مثال عملى يعبر عن فصاحة اللغة؛ فيقول: «حدَّثنى أبو سعيد بن روح قال: قال أهل مكة لمحمد بن المنذر الشاعر: ليست لكم معاشر أهل البصرة لغة فصيحة، إنما الفصاحة لنا أهل مكة، فقال ابن المنذر: أمَّا ألفاظنا فأحكى الألفاظ للقرآن، وأكثرها له موافقة»[1].

فمن هذا القول نرى امتداد مفهوم نسق الفصاحة ليشمل اللغة كلها؛ بما فيها من أبعاد، فقول ابن المناذر هذا إنما فضلت لغة أهل البصرة لمحاكاتها للقرآن الكريم، وربط ألفاظها

(1) المرجع السابق، ص17.

بألفاظه، فالمقصود هنا ليست المفاضلة فى مفردات اللغة وحدها، إنما فى التعبير اللغوى كله بما فيه من تراكيب. وبذلك يأخذ المصطلح هذا الاتساع المقصود الذى يدخل فى مساواة البلاغة.

آلة الفصاحة :

ويتصل بنسق الفصاحة آلتها المعبِّرة عنها، وهذه الآلة تتمثَّل فى النطق. وآلة النطق: هى الصوت المعبر عن اللفظ.. ومن العجيب أن تأتى آلة اللفظ فى باب البيان عند الجاحظ، وبالطبع فإن لهذا الموقع دلالته الخاصة من حيث اقتران الفصاحة بالإبانة، بل من تداخلها مع بعضها البعض، حتى لا يجب أن يكون هناك تفريق بينهما - يقول الجاحظ: «والصوت: هو آلة اللفظ، والجوهر الذى يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظًا ولا كلامًا موزونًا ولا منثورًا إلَّا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلامًا إلَّا بالتقطيع والتأليف»[1].

إنَّ الجاحظ يتحدث عن قيمة الصوت فى شكلٍ تتابعى، يبدأ بالوحدة الصغرى المكونة من مخارج الأصوات، ثم يتصاعد الحديث إلى التقطيع – المقاطع - الذى به يوجد التأليف، والتأليف الذى يعنيه هو التراكيب الخاصة للألفاظ، والجُمل القائمة على تأليف المعانى.

فالصوت آلة الإفصاح؛ كما يشير الجاحظ، الذى أسس بهذا الجهد التتابعى لنظرية (ابن جنى) القادمة بعده فى كتابه «الخصائص»؛ والذى يُشير بدوره إلى اللغة باعتبارها أصواتًا يعبر بها كل قوم عن أغراضهم.

وإذا كانت الفصاحة تقترن باللغة – اللسان - وهى من أهم صفة لها، وإذا كان الصوت هو آلة اللغة ذاتها، فإنه بالتالى آلة الفصاحة ذاتها أيضًا.

الصوت آلة الصفاحة = آلة اللغة = (يلة البيان ذاتها)

= جوهر التقطيع

= سبب حدوث التأليف

---

(1) المرجع السابق، ص28.

= حركات اللسان باللفظ والكلام

= (المنثور – الموزون).

ولأن آلة اللفظ هذه تندرج فى استخدامها من الصوت إلى ما بعده من الوحدات، فإن الجاحظ تتبَّع ذلك، وركَّز على مقاييس خاصة، يجب توافرها فى بنائها. ومن هنا ذهب يوضِّح ويرسم أبعاد الحرف وسلامته وعيوبه، وذلك من خلال شواهد عملية دالة، لها أبعادها التى تدخل معها فى علم اللغة وأصوله، بل إن عرض الجاحظ لوجوب السلامة فى النطق أمر قد أغرى أصحاب البلاغة بعده على اعتبار الفصاحة جانبًا فى السلامة وحدها، فبعُدت البلاغة بذلك مسافات شاسعة عمَّا يقصده الجاحظ نفسه، وعما يُعنيه بذكاء يُظهره فى أنَّ البلاغة هى دراسة فى عمق اللغة قبل كل شىء، إنها نظرة ذكية تنُم عن منهج الجاحظ المتفرد به.

لقد اهتم الجاحظ بإظهار عيوب النطق لتفادى تلك العيوب، إنه يريد لجزئيات الآلة المتحدثة والموصلة أن تكون تامة السلامة. فعرض لأشهر الحروف التى يتكرر فيها عيوب اللثغات؛ فيقول تحت عنوان «ذكر الحروف التى تدخلها الثغة» وما يحضرنى منها: «وهى أربعة أحرف: القاف، والسين، واللام، والراء»[1].

فهذه الحروف تتحول إلى حروف أخرى عند النطق، مما يؤثر فى أداء المعنى وتحويله عن غرضه تحويلاً تامًّا، وذلك بتوليد معانى انحرافية بسبب عيب الحرف.

فاللغة العربية لها دِقَّتِها التى تميزها بذلك عن اللغات الأخرى، والجاحظ حريص على عرض ما يعترى هذه الحروف من تغيير بيِّن عند الناس، ومن خلال هذا العرض يقارن بين نطق الحروف فى اللغة العربية، وعيوبها ونطقها فى اللغات الأخرى... الأمر الذى يدل على ثقافته الواسعة والعميقة، كما يدل أيضًا على أن العناية بآلة النطق موضوعٌ له أهميته القصوى عنده ولا يقف عند العرض المحلى وحده.

---

(1) المرجع السابق، ص21.

ومن هذه العناية كان تركيزه على حروف الاستبدال الحادثة من ذلك العيب الخِلقى فى النطق، فأخذ يشرح هذا الاستبدال وأثره فى شىء من الإفاضة، تدل على وعيٍ خاص بأوضاع اللغة وأبعادها عنده، كما بيَّن كيف يأتى التحول فى هذه الحروف، واستطاع حصر الاستبدالات هذه فى (القاف، والسين، واللام، والراء).. وأما الشين فإنها مستعصية على الحصر – كما يقول –، وهى بذلك تدخل عيوبها من جانب المخارج، وليست الحروف ذاتها – فيقول الجاحظ عن تلك اللثغة: «فأما التى هى على الشين المعجمة فذلك شىء لا يصوره الخط، لأنه ليس من الحروف المعروفة، وإنما هو مخرج من المخارج، والمخارج لا تُحصى ولا يوقف عليها»[1].

1 – **الشين:** لها صعوبة معينة فى حصر استبدالها وتغيراتها، وبذلك تكون محل العيوب التى تأتى معها من باب مخارج الأصوات وليست من باب الحروف والأصوات المحددة والمخطوطة.

2 – **السين:** لها بُعدان:

الأول: يمكن حصره من الاستبدال؛ مثل تحويلها إلى ثاء واضحة الصغر فى اللغة العربية، أو اللغات الأخرى (لغة الخوز – وفى سواحل البحر من أسياف فارس).

الثانى: يتصل بلثغات سينية لا يستطاع حصرها لقوتها وتفشِّيها، وذلك مثلما هو عند (واصل بن عطاء) أو (سليمان بن يزيد العدوى).

3 – **القاف:** وتستبدل بالطاء... ويستدل الجاحظ ببعض الأمثلة على ذلك مثل: (قال– طال – قلت – طلت).

4 – **اللام:** وتتحول اللام فى اللثغة إلى (ياء) أو إلى (كاف).

5 – **الراء:** وهى من اللثغات الواضحة والحروف التى تستدل بها هى: (الياء –والغين – والذال – والظاء).

---

(1) المرجع السابق، ص21.

ويضرب الجاحظ مثالاً شعريًا لعمر بن أبى ربيعة فى قوله:

واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يُستبد

ويأتى بتحويلات مرة إلى: (مذة – مظة – مية – مغة).

وهذا العرض فى التحول المتعدد لكلمة واحدة (مرة) له دلالة خاصة فى تغيُّر المعنى، وفى استبداله كذلك، كما يدل على رسوخ هذا التغيُّر وتفشيه حتى أصبح معتادًا فى النطق، وأصبح بالتالى مألوفًا، خاصة التغيُّر فى الراء الذى يعُده الجاحظ أخف التغيرات – اللثغات –؛ يقول فى ذلك: «وأمَّا اللثغة فى الراء فتكون بالياء والظاء والذال والغين؛ وهى أقلها قبحًا وأوجدها فى ذوى الشرف وكبار الناس وبلغائهم وعلمائهم»[1].

وإذا كان مصطلح الفصاحة – عند الجاحظ – يمثل البيان والبلاغة، فإن آلاته تمثل أبعاد الإفصاح اللغوى، كما تمثِّل سلامة التعبير، وليس معنى ذلك فصل الفصاحة عن وظيفتها البيانية، إنها تتداخل وتتشابك، وكيف تعرف البيان إلَّا باللسان المبين؟ وكيف يكون هذا اللسان بدون وقوف على آلات تكونه من الأعضاء البيولوجية؟. إنَّ الجاحظ لا يفوته ذلك، فيعرض للأسنان واللثة والهواء الحادث فى النطق، وحجم اللسان، وأبعاده – يقول: «وقال أهل التجربة: إذا كان فى اللحم الذى فيه مغارز الأسنان تشمير، وقصر سُمك ذهبت الحروف وفسد البيان»[2].

ومن منطلق حرص الجاحظ على (آلة البلاغة) التى يراها تبدأ فى آلة الصوت ذاته، والتى تؤدى وظيفتها فى طرق تحوّل الهواء الخارج إلى لغة مسموعة لها نظامها، ولها معانيها بالتالى، فلقد عمد فى تلك الإشارة إلى الجانب اللغوى، واعتمد على البدء بأدق جزء – كما أشرنا – يمكن أن يحدِّد بناء اللغة وتراكماتها وكذلك صيغها، فالصوت لا يكون مجردًا، إنه يرتبط بجانب حركى، كما هو مرتبط بجانب دلالى (معنوى) – «فاعتماد الكلام المنظوم على أساسين؛

(1) المرجع السابق، ص30، 31.
(2) المرجع السابق، ص46.

أحدهما: حركى؛ يسمَّى المخارج، والثانى: سمعى؛ يسمَّى الصفات... قد عدد أُسس الاختلاف بين الأصوات المنطوقة، فأمكن لهذه الأُسس وما بينها وما فى خلالها من مقابلات أو قيم خلافية أن تكون منطلقًا مناسبًا للسعى إلى إنشاء نظام صوتى لغوى»[1].

فآلة الصوت التى جمعها الجاحظ وشرحها وبيَّن قيمتها تدخل فى الوجود اللغوى المشار إليه، فخروج الصوت من آلته ليس إلَّا بدءًا للتكوين اللغوى هذا. ولذلك كان وجوب العناية بهذا الأساس، فجاءت إشارة الجاحظ إلى السلامة والعيوب النطقية، والتى يقابلها وجوب العناية بالتخلُّص من هذه العيوب، أو فهم مواطن الضعف؛ والتى تؤدى – بدورها– إلى التحول فى المعنى.

ومن دواع التتبع الدقيق للظاهرة النطقية عند الجاحظ ما اهتم به من دراسات خاصة للإنسان، واللثة، وتركيب وصفات كل منهما، وأثر ذلك فى النطق والإبانة الصحيحة وغير الصحيحة، فأخذ يتحدث عن سُمك اللثة، وأثر هذا السُّمك فى الأسنان وفى قوتها. ومن ثَمَّ يبدو أثره فى النطق وفى مخارج الألفاظ.

لقد كوَّن الجاحظ ثلاثية تشريحية تدخل نسق الفصاحة من الجانب العلمى الذى يجيده فى موسوعاته؛ فالطرف الأول هو (اللثة)، والثانى فى (مغارز الأسنان)، وأما الثالث فهو فى (اللسان وحركته).

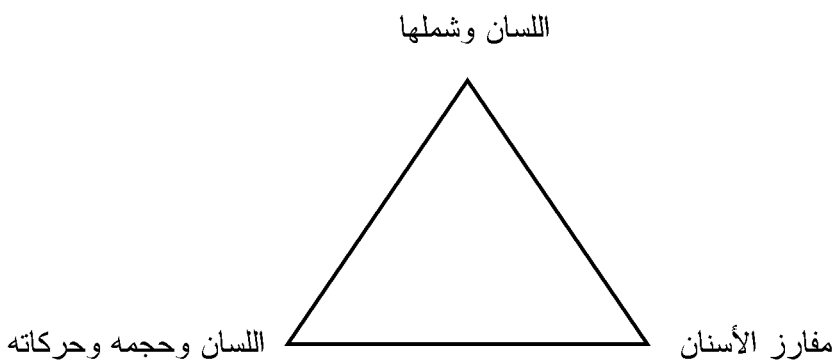

(1) تمام حسان؛ **اللغة العربية... معناها ومبناها**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص26.

ويؤكد الجاحظ ذلك بقوله معتمدًا على إشارات ذوى العلم والتجربة: «وقال أهل التجربة: وإذا كان فى اللحم الذى فيه مغارز الأسنان تشمير وقصر سُمك ذهبت الحروف وفسد البيان. وإذا وجد اللسان من جميع جهاته شيئًا يفرغه ويصكه ولم يمرّ فى هواء واسع المجال، وكان لسانه يملأ جوفة (فمه)، لم يضره أسنانه إلا بالمقدار المفتقر»[1].

إنَّ هذه الدراسة العلمية هى تأسيس لما رآه (السكاكى) فى حديثه عن الأسنان ومخارج الأصوات منها، وهى دراسة اعتبرها صاحب المفتاح ضرورة لدراسة جوانب البلاغة.

وإذا كنا قد أشرنا إلى أنَّ الجاحظ بحديثه عن هذه الجوانب اللغوية بأنه قد بذر بذرة الثنائية بين الفصاحة والبلاغة دونما قصد منه؛ فإن هذه البذرة لا تأتى إلَّا لمن يريد الفصل بين أمور البلاغة، والتى هى فى ذاتها وحدة متماسكة يحرص الجاحظ عليها حرصًا شديدًا.

أبعاد الفصاحة القولية :

ونسق الفصاحة الذى ارتكز عليه الجاحظ قد أخذ عدة أبعاد كما أخذ عدة تشعبات متداخلة، ولذلك فإن هذه الفروع بأجزائها وتداخلاتها، قد شغلت مساحات كبيرة تتبع خلالها حيز هذا النسق بكل تفصيلاته، فبدأ بالصوت وسلامته، وهذه السلامة هى – بدورها – سلامة الإبلاغ ووضوحه، مما يعمل على إعطاء الدلالة قوة أخرى.

ولأن جل اهتمام الجاحظ بالقول الشفوى القائم على المجابهة، فإنه لذلك ذهب يتقصَّى العيوب المتصلة بالنطق، والعيوب المتصلة بطبيعة القول من إكثار، وغير ذلك. وكطبيعة الجاحظ العملية التى رأيناها، فإنه ذهب يجمع شواهده الواقعية التى تخدم هذا الميدان، ولهذا أشار إلى العيوب الناجمة من آلة النطق وحصرها حصرًا مؤيَّدًا بجوانب عملية، فربط – حينئذٍ – بين النظرية والتطبيق.

وبجانب الإشارة إلى العيوب التى توجد من مخارج الحروف؛ حيث شاهدنا اللثغات التى تقلب الحروف حروفًا أخرى، فهناك العيوب المتعددة للنطق وما يحدث من تمتمة وتعتعة –

---

(1) الجاحظ؛ **البيان والتبيين**، ط1، ص47.

وهنا يعرض الجاحظ إلى ذلك بقوله: «قال الأصمعى: إذا تتعتع اللسان فى التاء فهو تمتام، وإذا تتعتع فى الفاء فهو فأفاء»[1].

إنها عيوب تقف فى وجه نسق الفصاحة التى تحمل معنى الخلوص والصفاء، وهذا أمر متأصل فى التراث، وقد حرص الجاحظ على إظهاره ودراسته.

ولأن الفصاحة – رغم إفرادها بالحديث المطول – هى الإبانة والإعراب، فإن الجاحظ قد شرح معنى ذلك فى قول الشاعر (الخولانى)؛ الذى يشير إلى عيب من عيوب النطق فى الإظهار:

إن السياط تركن لحمك منطقا كمقالة التمتام ليس بمعرب

والبيت يُعَدُّ شاهدًا من الشواهد المثبتة لسلبيات الفصاحة، ولهذا فإن الجاحظ يتدخل – كدأبه المنهجى – بالتعليق والشرح فى تفسيره للتمتام من القول؛ فيقول: «فجعل الخولانى التمتام غير معرَّب عن معناه، ولا مفصح بحاجته»[2].

ومثل هذه الشواهد هى التى تنتج المصطلحات والأنساق الداخلة فى مفهوم الفصاحة ذاتها، ولذلك فإننا نستطيع استخلاص سلبيات وعيوب أخرى يجب التخلص منها – **وتتمركز هذه العيوب فى أنساق سلبية؛ هى:**

1 – الفأفأة. 2 – التأتأة.

3 – اللثغة. 4 – الحصر.

5 – العى. 6 – الحبسة.

7 – العقلة. 8 – التعتعة.

---

(1) المرجع السابق، ص31.

(2) المرجع السابق، ص32.

9 – التلجلج. 10 – البكك.

11 – ثقل اللسان. 12 – اللكنة.

وهذه العيوب تُنذر بالنقص الذى يقف دون الإفصاح عن الرأى والإفهام. وبجانب هذه العيوب فهناك **عيوب تأتى فى المبالغة والإسراف فى القول؛ مثل:**

1 – التشادق. 2 – التفيهق.

3 – الثرثرة. 4 – الإكثار.

ولقد أظهر الجاحظ مصطلحًا متولـدًا مـن الفـصاحة، هـذا المـصطلح يتـصل بالانتظـام والتماسك بل والنسج الفنى، وهذا المصطلح هو (القِران).

ويتصل هذا المصطلح الذى يعمل بزوايتين هما «الفظ، والحـروف» بـأمور فنيـة، والبُعـد عنها يُعَدُّ سلبية بارزة فى أساسيات الفصاحة. (والقِران) فى اللفظ يأتى مع التماسـك الخـاص، فلا تكون الألفاظ متباعدة تباعد (بعر الكبش). وهو تعبير اختاره الجاحظ، وأيَّده مـن خـلال هذا الموضع، ومن خلال عرض الشاهد الشعرى الذى يشرح هذا المصطلح، فينقـل الجـاحظ قول (أبى البيداء) معبرًا عن ذلك:

وشعر كبعـر الكبـش فـرق بينـه لسـان دعـى فى القريض دخيل

وهنا نلحظ كراهية التباعد من خلال استخدام صـورة التـشبيه الدالـة؛ حيـث اسـتخدم المشبَّه به (بعر الكبش) الرابط للمشبه (شعر) والجامع بيـنهما، هـذا التفريـق واقـعٌ مـن لـسان الدعى للقريض، وهذا اللسان هو دخيل على إنشاء الشعر، والجاحظ يستفيد من هذا الـشاهد فى الحديث عن النظم وقوة السبك، ولهذا يعلِّق قائلاً: «وأمَّا قوله «كبعر الكبش»؛ فـإنما ذهـب إلى أن بعر الكبش يقع متفرقًا غير مؤتلف، ولا مجاور»[1].

والإشارة إلى الترابط تكمن فى حُسن السبك، وجودة النظم المتمثلة فى عدم التفـرق ؛ هذا الترابط المتماسك هو الذى يؤدى إلى مصطلح (القران)، وهذا القران يمثـل دلالـة التمـاسك؛

(1) المرجع السابق، ص50.

ليس فى الشكل وحده، ولكنه ترابط تركيبى.

وأمَّا قران الحروف فإنه يدل على وحدة الكلمة وتماسكها كذلك. وهنا تدخل الازدواجية النظمية بين الكلمة والجملة، فيكون النطق وسلامته بداية للتعبير الكلى.. وهنا أيضًا نرى إشارة إلى التعبير الكلى- (شعرًا وقولاً -، عن طريق القران اللفظى الحريص على التماسك الشعرى، والقران الحرفى – الصوتى – القائم على سلامة القول الشفاهى، وكذلك الشعرى والذى يعمل على نظم الحروف وتماسكها.

ونستطيع استخلاص المقاييس الصوتية (لقِران) الحروف من خلال عرض الجاحظ لها؛ فيقول: «وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر نراها متفقة مسًّا، ولينة المعاطف سهلة.. ونراها مختلفة متباينة، ومتنافرة مستكرهة، تشق على اللسان ونكرة، والأخرى نراها سهلة لينة، ورطبة مواتية، سلسة النظام، خفيفة اللسان، حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد»[1]. ويتولَّد من هذا القران أقسام ومصطلحات تدخل ضمن فصاحة القول؛ مثل:

القران فى اللفظ :

- التماسك. – عدم التباعد.
- عدم التفرق. – الإتلاف.

القران فى الحرف :

- متفقة ملبسًا ولينة المعاطف.
= سهلة.
- لا تختلف ولا تتباين.
- لا تشق على اللسان ولا تكده.
- خفيفة على اللسان.

(1) المرجع السابق، ص5.

النقطة الثانية – أنساق البيان :

وهذه النقطة تتصل بأنساق البيان ومصطلحاته عند الجاحظ؛ والتى جاءت من قوله، واستخلصها كذلك من بين جهوده الوفيرة فى جمع المادة العلمية وحشدها وفهمها.

لقد تداخلت الأنساق التى عرضها فى مجال فهمه للفصاحة، وكان ذلك المجال فسيحًا متسعًا يحتوى على تنوعات من المصطلحات المتشابكة تعيى مُحصيها، ولكنَّ الجاحظ بدأبه المعروف قد استطاع عمل شبكات نسقية دقيقة متداخلة.

ولم تقف هذه الأنساق موقف الانفصال مؤذنه بتقسيم البلاغة منذ نشأتها، ولكنه انفصال للاتصال، وتقسيم كأجزاء خلايا الكائن الحى؛ تعيش كلها من خلال اتصال البعض فى حيوية وتماسك، فلا حياة لكل خلية بدون الآخر.

فالفصاحة – رغم تفردها – هى قاعدة البيان، وهى أساس – بالتالى – لتوليد أنساق أخرى تمتد بشكلٍ واع من ثلاثية البلاغة الإبداعية.

وأنساق البيان لا تُفهم بدون الإشارة المسبقة إلى أنساق الفصاحة. لقد عمد الجاحظ إلى التعريف الذاتى للبيان، بعد ما وثق من ارتكاز الفصاحة على أنساقها التى بيَّنها من خلال الدراسة العملية المستندة إلى شواهد مكثفة.

وجاء هذا التعريف الذاتى يحمل بين طياته، وبين جنباته أنساقًا قائمة على الظهور والإفهام، فقد بناها ووحدها هدف الإبانة، كما أسسها ووضع قواعدها وضوح الدلالة، ولذلك فإننا نستطيع أن نضع مصطلح البيان بجانب كشف القناع، وبجانب هتك الحجاب إلى حقيقة المعنى، **فوظائف البيان عنده تتمثَّل فى:**

1 – كشف قناع المعنى.

2 – هتك الحجاب للوصل إلى أصل الدلالة.

3 – الإفضاء للحقيقة.

4 – الهجوم على المحصول.

5- البيان بصر فى العى عمى.

ويربط عُرَى هذه الأنساق وظيفة الفهم والإفهام، فتنطلق تلك الأنساق الوظائفية مع أنساق أخرى تكوِّن الدلالة وتؤسسها عند الجاحظ؛ وهى:

اللفظ. الإشارة. العقد.

الخط. الحال.

والجاحظ يؤسس هذه الدلالات بقوله: «وجميع أصناف الدلالات على المعانى من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد؛ أولها: اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال؛ التى تسمى نصبة»[1].

وكل هذه الأنساق بدينامياتها هى متصلة ومنفصلة؛ متصلة فى تحديد ميدان الدلالات، وبالتالى يتحدد ميدان البيان واتساعه وأبعاده.. ومنفصلة لأن كل نسق له حدوده ومادته ومجاله – كما يشير الجاحظ بقوله: «ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبتها، وحيلة مخالفة لحيلة أختها، وهى التى تكشف لك عن أعيان المعانى فى الجملة، ثم عن حقائقها فى التفسير»[2].

إن هذه الأمور لَبِنَات، وتختص كل لبنة بخصوصية معينة تميزها وتحددها، ولكنها فى النهاية متصلة اتصالاً كليًّا فى وحدة المبنى ذاته. وحصر الجاحظ لهذه الأنساق فى وحدة وتفريق، يجعل منهجه البيانى مميزًا؛ حيث يعد بعد ذلك استنتاجًا وصل إليه من خلال عرض ومناقشة.

لقد عُدَّت هذه اللَّبنات أهم أنساق وصل إليها الجاحظ من خلال الرؤية البيانية؛ فاللفظ والمعنى مشكلة الجاحظ الأولى، حيث «البيان والتبيين»، لقد شغلت هذه المشكلة حيزًا كبيرًا

(1) المرجع السابق، ص56.
(2) المرجع السابق، ص56.

من كتابه هذا، وامتدت بالطبع لأعماله الأخرى. وأما نسق الإشارة الداخل فى حيز البيان؛ فتلميح الجاحظ لها بالتعدد ينقلنا للحديث عن الجوانب الاجتماعية التى نعطيها مجالاً ومصطلحًا - فيقول: «فأما الإشارة فباليد، وبالرأس، وبالعين، والحاجب، والمنكب... وإذا تباعد الشخصان فبالثوب وبالسيف»[1].

وكلها علامات متفق عليها اجتماعيًّا، ولذلك فإن هذا النسق الإشارى للبيان يقوم على مصطلحات شكلية خاصة؛ لها تراثها، ولها أبعادها المميزة، ولهذا تتفق الإشارة مع اللفظ فيما يراد أن يعبر عنه من مواقف معينة - يقول الجاحظ رابطًا دور الإشارة بالإبانة اللفظية: «والإشارة واللفظ شريكان، وَنِعْمَ العون هى له، وَنِعْمَ التُّرجمان هى عنه. وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، ما تغنى عن الخط»[2]. وبهذا تصبح الإشارة غير القولية من أمور البيان، وتصبح تعبيرًا واضحًا قائمًا على رموز معينة تؤكد البُعد الاجتماعى، كما تعبر عن لغة «علامية» تدخل مجال الإفصاح والبيان، إنها حيز «سيميولوجى»؛ انطلق منه الجاحظ، وأسَّسه لمن بعده.

وفى (نسق الخط) يهتم الجاحظ بتوليد الدلالات الخاصة بالفهم والإفهام القائمة على حُسن الظهور، والمعتمدة – بدورها - على قوة البيان، ولذلك تأتى فضيلته التى أشار إليها الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم بقوله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق:1-5]، كما أقسم به فى كتابه المنزَّل بقوله: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ [القلم:1]، وهذه شواهد انتقاها الجاحظ فى إظهار وظيفة ذلك النسق ليجعله علامة لها دلالاتها.

وهكذا يُشير الجاحظ إلى أهمية كل نسق من هذه الأنساق الداخلة فى مفهوم البيان عنده؛ فيُشير إلى العقد، والحساب، والنصبة.. والعقد: هو الحساب دون اللفظ والخط؛ ومنه قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [الأنعام:96].

---

(1) المرجع السابق، ص57.

(2) المرجع السابق، ص57.

فهذا النسق الحسابى أبرز قيمته ووظيفته لإظهاره؛ من حيث الوصول إلى استنتاجات معينة تُعين الأنساق ذاتها على فهم الحقائق، وبالطبع فإن هذه الاستنتاجات تدخل فى باب الفهم والإفهام؛ وهو ملاك باب البيان.

ويشتمل باب البيان بهذا الإدخال العلمى على جوانب وزوايا علمية متعددة، فلا يقف البيان على اللسان الفصيح؛ فالفصاحة هى أيضًا قائمة على أُسس علمية، والفهم البلاغى بهذا يتسع فلا يقف على حدود ضيقة تحصره فى شواهد متكررة تتآكل بفعل الزمن وعوامل التعرية التى تأتى عليها تمامًا بعد ذلك.

إنَّ هذه النظرية العلمية المتسعة تُعيد إلى أذهاننا رؤية[1] **(Aortony)** فى كتابه **(metaphor and thought)** من حيث إدخال صورة الاستعارة وفهمها - وهى جوهر البيان - فى مجالات علمية متميزة توسع مداركها وتمد ميدانها.. كما يقول الإمام عبدالقاهر.

وتجتمع هذه الأنساق الدلالية كلها فى خيطٍ واحد لتنظم عند الجاحظ فى قوله: «والحساب يشتمل على معانٍ كثيرة ومنافع جليلة، ولولا معرفة العباد بمعنى الحساب فى الدنيا لَمَا فهموا عن الله عَزَّ وَجَلَّ معنى الحساب فى الآخرة، وفى عدم اللفظ وفساد الخط والجهل بالعقد فساد جل النعم»[2].

إنها أنساق موجهة للدلالة؛ تتفرق لتجتمع – كما أشرنا - فى عضوية نسقية خاصة تؤلف الجانب البلاغى، ولابد لتأليفها من قوة رباط، بل وقوة ونظام، ولذا أكَّد الجاحظ على تجنيب سلبياتها، فنبَّه إلى إعطاء صفات يجب وجودها فى تلك الأنساق؛ تتمثل فى عدم فساد اللفظ، وعدم ارتباطه بالمعنى، ثم عدم فساد الخط ودلالته على العيى الكتابى المؤدى إلى عدم الإبانة وفساد العقد والجهل به فساد النعم كلها.

---

(1) ينظر: A.Ortony فى كتابه Metqphor and thought p357

(2) الجاحظ؛ **البيان والتبيين**، ط1، ص59.

وتظهر كل هذه الأمور فى نسق النصبة، أو الحال - كما يشير الجاحظ -، حيث يشمل هذا المصطلح أبعادًا كثيرة دالة بذاتها على التعبير البلاغى، فيتسع بذلك المفهوم الإبلاغى، ولا يقتصر على دلالة اللفظ والقول، بلا ولا على دلالات الإشارة أو الحركة، وإنما يشمل كل تعبير صامت له حكمته التى أوجدته - يقول الجاحظ فى ذلك: «وأما النصبة فى الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيرة بغير اليد، وذلك ظاهر فى خلق السموات والأرض، وفى كل صامت وناطق، وجامد وتام، ومقيم ومظعن، وزائد وناقص؛ فالدلالة التى فى الموات الجامد، كالدلالة التى فى الحيوان الناطق»[1] . فالاستنتاج الدلالى فى الحال (النصبة) تابع من غير إشارة أو قول، ولكن الموقف ذاته أو الأحداث الواقعية ذاتها هى المحددة لهذه الدلالات. ولهذا يقرن الجاحظ كل صامت مع كل ناطق، كما يقرن كل جان بكل نام؛ من حيث الأبعاد الدلالية الخاصة، ومن حيث الوظيفة التى يستخرجها المتلقى. ولهذا كانت الدلالة فى الموات الجامدة كالدلالة الموجودة فى الدينامية بحركتها من جانب الموقف، ومن جانب التعبير المقصود، ولذلك كان قول الجاحظ: «فالصامت ناطق من جهة الدلالة، والعجماء معربة من جهة البُرهان»[2].

فالصامت الناطق هو الوجود الموجود بصمته، ودلالة هذا الصمت والسكوت تعبر عن حركة داخلة، مثل السموات والأرض ووجودهما الأبدى الذى ينتج من حركة داخلية، تنظم هذا الوجود الصامت بذاته، والناطق باستمرار وبحركته، وهذا له برهانه عند علماء الكون والفلك.

إنَّ الجاحظ يمد مساحة البيان، مرة أخرى لتشمل حدودًا أبعد من حدود الشواهد، فهو المنهج المتكامل المتصل بين أمور اللغة التى وُجِدَت فى الباب الأول الخاص بالفصاحة، وبين الدلالات المتعددة فى باب البيان، والتى ستصل إلى نتائج وأبعاد فى الفصل الخاص بالبلاغة... فالتعدد هنا هو وحدة، والتجرد هو امتداد، يظهر من مقدرة الجاحظ على هذا الربط بين (الفصاحة، والبيان، والبلاغة)؛ وجعلهم فى وحدة دلالية خاصة (هى وحدة الإبداع).

---

(1) المرجع السابق، ص59.
(2) المرجع السابق، ص59.

ولهذا فقد ختم باب البيان بما سوف يصله فى باب البلاغة وبما أشار إليه فى باب الفصاحة؛ وذلك من خلال تركيزه على أحسن الكلام فى قول مكثف وواضح؛ فيقول:

1 – أحسن الكلام: ما كان قليله يُغنيك عن كثيره.

2 – معناه: فى ظاهر لفظه.

3 – المعنى الشريف: اللفظ البليغ.

4 – صحة الطبع: الوصول إلى قلب المتلقى.

وشروط هذه الجودة تختصر فى الوصول إلى قلب المتلقى، عن طريق التعلم والقراءة، وفى الاختلاف إلى العلماء، ومدارسة الحكماء، فاقترنت الأنساق بعمق معرفى يأتى من خلال الدربة والتعلم والطبع.

النقطة الثالثة – (الأنساق البلاغية) :

وتتمثل فى الأنساق المستخلصة من مفهوم البلاغة عند الجاحظ، وذلك من خلال عروضه المكثفة والمتنوعة، وإذا كنا قد ذكرنا بعض هذه الأنساق فى أثناء عرضنا للمفهوم البلاغى، فإن دراستها هنا تختلف عن المعرض السابق، حيث تجب الإشارة إليها من خلال رؤية متكاملة تأتى بعد هذا العرض.

ونستطيع رسم هذه النقطة بأنساقها والنظر إليها من خلال أربعة زوايا هى:

1- زاوية النص النسقى ذاته. 2 – زاوية المقام.

3 – زاوية القائل. 4 – زاوية القول.

الزاوية الأولى :

فى هذه الزاوية نستطيع الإشارة بسهولة إلى الأنساق البائنة فى باب البلاغة عند الجاحظ؛ خاصة فى كتابه «البيان والتبيين»، وذلك لأن هذه الأنساق قد برزت بشكلٍ واضح من خلال تكرارها؛ هذا من جهة، ومن خلال شرحها من جهة ثانية، بالإضافة إلى ربطها بامتدادات فى أعمال أخرى – كما رأينا – وذلك من جهة ثالثة.. **وهذه الأنساق الدائمة هى:**

1 – الفصل. 2 – الوصل.

3 – الإيجاز. 4 – الإشارة.

5 – الوضوح. 6 – الدلالة.

7 – الغزارة. 8 – تصحيح الأقسام.

9 – اختيار الأقسام. 10 – البصر بالحُجَّة.

11 – مواضع الفرصة. 12 – الإطناب فى موقعه.

وبعض هذه الأنساق أخذت امتدادًا من خلال شرحها، ووضع شروط وجودها، وَتَرَكَّز

ذلك – كما رأينا – فى الإيجاز والإطناب، ولذلك فإننا نستطيع تكثيف ما ارتبط بهما فى بعض الصفات التى تحيط بهما كالتالى:

الإيجاز:

إجابة بلا بطء. قول بلا خطأ. حذف الفضول.

تقريب البعيد.

التكثيف:

وقد أدى هذا التكثيف، كما أدت هذه الشروط الموضوعة لطبيعة الاختصار – الإيجاز – إلى جعل (الإيجاز) ذاته هو البلاغة بعينها.. وهذا أهم نسق ركَّز عليه الجاحظ نفسه.

الإطناب:

وأما الإطناب؛ فإن الصفات التى تحيط به ليكون نسقًا بلاغيًا مؤثرًا فتتمثَّل فى:

- إطالة مطلوبة. – تماسك القول.
- امتداد للموقف. – غزارة فى الدلالة.
- البُعد عن الفضول. – عدم الإملال.

ولأن الإيجاز قد تصدر أنساق البلاغة؛ بل وسيطر على تعريفاتها وذلك لما يتطلب القول الموجز المعبر من أبعاد فنية، يجب حصرها فى حيِّزٍ صغير، ولهذا فإن الأطناب – أيضًا – قد نظر إليه بحذر شديد، فكان نسقًا بلاغيًّا محاطًا بهذه الشروط، فيأتى – كما رأينا – عندما يستدعى الموقف حضوره؛ أى تمليه ضرورة مقامية مطلوبة.

الزاوية الثانية :

وهى زاوية المقام التى تفرز – بدورها – أنساقًا بلاغية معينة تنضم إلى الزاوية الأولى، ويدفع توليد هذه الأنساق دوافع التخير والاختيار؛ اللذين يؤديان بالقائل إلى عناية بالقول، كما يؤديان – أيضًا – إلى الانتقاء المناسب لكل حال، هذا إلى جانب ربط المتلقى بقائله، وهنا

يُستدعى نسق (المناسبة) الذى لا يذكر صراحة عند الجاحظ، ولكنه يُستنتج من خلال عرض القول وأنساقه.

وتدخل هذه المناسبة فى دائرة المعنى وتشاكله، وبذلك تأخذ هذه الزاوية شكلاً أسلوبيًّا خاصًا يجعل المقام والمقال أكثر من ثنائية- «فعملية التشكيل الأسلوبى لا يُمكن حصرها فى ثنائية المقام والمقال؛ ذلك أن الحصر إنما يفعل الضلع الثالث من مثلث التشكل الأسلوبى وهو جانب المعنى»[1].

ويتصل بالمقام نَسَقٌ آخر يردده الجاحظ فى كتابه «البيان والتبيين»؛وهذا النسق متولِّد من تفاعلات العلاقة المقامية بالقول، وقد أُطلق عليه مصطلح (الأقدار)، وقد استُخلص من صحيفة بشر بن المعتمر، فهو مصطلح اعتزالى.

ولقد اتسع هذا المصطلح ليأخذ فى حيزه مصطلح المقام نفسه، فالمقام يدخل فى الأقدار من جهة التشكيل الفنى، ولهذا فإنه يُعطى مقياسًا خاصة للفهم والمعرفة، كما يُعطى الإشارات المتعددة إلى متابعة الأحوال، التى يركز عليها بِشر، ويرددها الجاحظ؛ وبذلك يمكن ملاحظة تساويًا يحدث بين المقام (المقام - الأقدار – الأحوال)، إنها أنساق يكثُر قولها، كما يكثُر استخدامها مع التشكيل.

ولكن لكل نَسَق (مصطلح) منها مجال خاص يرتبط به؛ فالمقام يأتى بصفة عامة، حيث يرتبط بالقول (المقام والمقال)، وتردد هذه الصيغة المقترنة بين المقام وبين المقال عند الجاحظ، وتنتقل من مرحلة التأسيس لتصبح هى المفهوم البلاغى بعد ذلك، حيث تلقَّفها (القزوينى) وبنى عليها مفهومه البلاغى المنتشر.

فمشاكلة المقام والمقال هى الحركة الإبداعية فى النظرة البلاغية منذ تلك المرحلة، وهذه المشاكلة تُشغل حيزًا من المساحات تحدد حسب العلاقة بينهما، وهى علاقة فنية تسير فى

---

(1) سعد مصلوح؛ **فى النص الأدبى... دراسة أسلوبية إحصائية**، النادى الأدبى، جدة – المملكة العربية السعودية، ص48.

اتجاهين على نحوٍ مستمر، فكما أن المقال دليل على المقام، فكذلك نجد المعرفة بالمقام جوهرية فى فهم المقال، وتظل العلاقة الجدلية قائمة بينهما طوال عملية الممارسة اللغوية[1]. **وهذا ما يؤكد على مقدرة القائل واستعداده لهذا الربط والاتصال.**

وإذا كان المقام قد ارتبط بالمقال؛ فإن الأقدار تُعَدُّ أكثر اتساعًا من هذا الارتباط وذلك لأنها تضم داخلها المقامات وأبعادها - كما اشرنا -.

وهذا النسق (المصطلح) لا يأتى منفردًا؛ حيث يرتبط بوثاق الإضافة إلى أمور معينة تحدد قيمته، وتحدد معناه المطلوب، ولقد أقرَّ الجاحظ بذلك من خلال عرضه لصحيفة بشر بن المعتمر، والتى حددت الأقدار بانتسابها إلى (المعانى، والمستمع، والمقام، والكلام)، ولهذا فهى أكثر اتساعًا من المعنى ذاته، فالمقام متصل بثنائية «الكلام والمتلقى»، ولكن الأقدار مرتبطة بأكثر من ثنائية، بل إنها تُدخل المقام ضمن محتوياتها.

المقام :

- التغيُّر.
- كلام سيد الأمة.
- كلام الأمة.
- الدوافع.

الأقدار:

- المعانى.
- المستمع.
- الكلام.
- المقامات.

وأما الأحوال؛ فقد دخلت عند الجاحظ – كما رأينا - فى موضع الدلالات الواضحة التى تستنتج من خلال التأمل، كما تدخل – أيضًا - فى تغير الأوضاع، وحسب هذا التغير يتبدل القول.

---

(1) الجاحظ؛ **البيان والتبيين**، ص45.

الزاوية الثالثة :

وهى تتصل بالقائل (المبدع) وطرق إبداعه، كما تتصل باستخدام أنساق معينة تعمل على إعطاءه هيئة مخصوصة تتناسب وطبيعة الموقف المملى عليه.

ولقد شاهدنا هذه الأنساق مفصَّلة عند مقارنتنا بين صحيفة بشر بن المعتمر والصحيفة الهندية الخاصة بإبلاغها وأبعادها.

وأهم ما يمكن استخلاصه من ذلك هو مصطلح (الآلة)، وكالمصطلحات الخاصة بالهيئة والشكل الخاص للمبدع فآلة البلاغة تدخل معها مصطلحات (القوة والثبات، وحُسن التصرف)، وما يتصل بالهيئة يُحدث أنساقًا مترددة مثل (القوة، الصفاء – حُسن التصرف أيضًا)، بجانب البُعد الفنى المتصل بالقول؛ والذى يدخل فى حيز المَلَكَة، بجانب - أيضًا - حيز الدربة والمعرفة بفنون التعبير.. **فهذه الزاوية – الثالثة – تتمركز بشكلٍ خاص فى:**

1 – آلة البلاغة. 2 – المَلَكَة.

3 – المقدرة. 4 – الهيئة.

5 – حُسن التصرف. 6 – معرفة الأقدار.

وأما الزاوية الرابعة – والأخيرة فى هذه النقطة :

فهى زاوية القول (المنتج من التفاعل فى الزوايا السابقة)؛ وتدخل هذه الزاوية أمور متشعبة كثيرة، ومتعددة، ولكنها تجمع بين ضلعى (اللفظ والمعنى).

ويمكن تكثيف كامل ما ورد عند الجاحظ من أنساق تتصل بتلك الثنائية البلاغية فى ضلعين:

الأول: (المساواة – اللفظ – السلاسة)؛ فالمساواة تدخل معها كل أبعاد الدقة والمطابقة وحُسن التشكيل، والسلاسة ترتبط بالقوة، وعدم التوعر، والاختيار، وصحة القول والنطق، وكل ذلك أمور تأخذ معها تشعبات أخرى من العفوية والشرف... وغير ذلك.

وأما **الضلع الثانى:** فهو يرتكز على قاعدة الضلع الأول ويدخل معه فلا ينفصل، وهذا الضلع هو المعنى؛ والذى يمكن تكثيفه فى: (الفخامة – المضى – الوضوح)؛ فالفخامة تتضمن الانتقاء بين اللفظ والمعنى، وهذا الانتقاء يعبِّر عن الجهد المبذول فى التشكيل، كما يدل الوضوح على تعدد الدلالات وأبعادها.

وبعد فهذه إشارة إلى لَبِنَةٍ معينة قد وضعها الجاحظ مع لَبِنَاتٍ أُخر، ليؤسس بها المفهوم البلاغى؛ إنها لبنة قامت على وعى منهجى خاص لا يبلغه إلا الجاحظ ذاته، فلقد وضع الأساس الصحيح المترابط، وانطلق منه ليسير فى طريق البناء المتماسك؛ فسبق عصره فى قيمة الفهم. إننا بإزاء أسلوب خاص انتهجه الجاحظ؛ يعتمد على (التنوع) المبصر بأمور اللغة وقدرتها وأبعادها، والذى يربط كل ذلك بواقع خاص، فالعرض الذى رأيناه يُظهر ثراء الجاحظ، كما يُظهر مقدرته المنهجية التى تدخل فى حيز الأسلوب وأبعاده، مما يجعل البلاغة هى ذاتها أسلوب مميز، ركَّز الجاحظ عليه من بدايته.

وإذا كان الجاحظ قد عنى بفن الخطاب الجيد كميدان علمى للبلاغة، فإن الدراسات الأسلوبية الحديثة تعنى بهذا الأمر ذاته، فقد وجهت الدراسات الأسلوبية وجهتها إلى ربط الخطاب بالكيفية الأسلوبية[1]. وبهذا يؤسِّس الجاحظ للبلاغة تأسيسًا سليمًا، ويجعل قاعدته مجالاً جيدًا للانطلاق السليم.

لقد أكَّد الجاحظ على إمكانات اللغة وتفجير طاقاتها، ليأتى الإبلاغ الأدبى معتمدًا على اللغة الوصفية، لا تلك اللغة المعيارية. وهذا هو مضمون الأسلوب الأدبى، بل هو الاستعمال الخاص للغة الذى يقوم على «استخدام عدد من الإمكانات والاحتمالات المتاحة»[2].

ومن هنا نرجع إلى بدء القول ؛ بأن البلاغة عمل تشكيلى يخضع لأمور تحدد طبيعته

---

(1) راجع فى ذلك: براند شيلز؛ **علم اللغة والدراسات الأدبية**، ترجمة: محمود جاد الرب، ص163.
(2) سعد مصلوح؛ **الأسلوب... دراسة إحصائية**، عالم الكتب، القاهرة، ص51.

وشكله - «إننا يمكنا القول بأن البلاغة هى مقياس لمدى نجاح المبدع - القائل أو الأديب - فى أن يجعل النشاط اللغوى نشاطًا خلَّاقًا»[1].

ولقد برهن الجاحظ على ذلك بصبر ودأب، وعمد إلى باطن اللغة يستخرج دلالاتها وطاقاته الكامنة.

إنَّ أعمال الجاحظ نقطة تحول مهمة فى مجال الدراسة النقدية والبلاغية، وهذه النقطة هى بداية لا تقف فى حيِّزٍ ضيق، بل هى بداية موسوعية قامت على أصول قوية تكفى لبناءٍ ضخم عير محدَّد. لذا فإننا نُقِر أنَّ هذه هى نقطة فى محيط بحر الجاحظ، هذا البحر الذى يبتلع كل المناهج والدراسات إن لم نقف على منهج قوى؛ يشرح، ويحلل، ويستنتج، ويضيف، لا يعتمد على مجرد الاستخلاص وعمل الإحصاء غير المفيد، وذلك بتجميع المواد البارزة فى موسوعته، والبُعد عن ربطها بظاهرة معينة، وهذا ما وسم معظم الدراسات التى تناولت الجاحظ بالدراسة.

(1) عبد المنعم تليمة؛ **مداخل إلى علم الجمال الأدبى**، ص102.

محصلات المحور الرابع

تتكون محصلات هذا المحور (الرابع) من وحدات هى:

الوحدة الأولى - هندسة التأليف عند الجاحظ :

يعتمد الجاحظ فى تأليفه على منهج متكامل يسير وفق هندسة مقصودة، ولهذا يأتى التصميم المعتمد لكُتبه، فهى ليست إرهاصات غير منتظمة، وإنما هى بناء مُحكم الصنع، دقيق الأبعاد، أساسه قوى متين، وعمده وضعت بوعى وذكاء، ولهذا فإن الوصول إلى طبيعة هذا البناء يُعَدُّ أمرًا من الصعوبة بمكان قصى بعيد، له عُدَّته الخاصة عند قارئ ودارس الجاحظ.

وقوام منهج الجاحظ هو الربط الوثيق بين امتدادين: خارجى، وداخلى. ويقوم هذا الامتداد من خلال الرؤية المتماسكة، والتى تعمل على إظهار هدف بعيد يريده الجاحظ نفسه، فليس من السهل – إذن – إدراك منهجه، ولهذا فإن هناك من اعتبر كتبه غير مرتبة منهجيًّا، فهى أمور تجميعية لا يربط موادها رابط ما، فهذه النزعة إلى الجمع والنقص، وتأليف المتنافر، هى فى رأينا تجسيم لتصور ثقافى ونظرية فى المعرفة، لم تخضع فى الغالب لمنهجية واضحة وبناء محكم[1].

ولكن الجاحظ يستخدم أسلوبه الماكر المقصود فى بناء المنهجية الخاصة به، ولهذا عُدَّ كتاب «البيان والتبيين» كتابٌ ماكر خادع[2]. فلابد من الحذر الشديد عند التعامل معه تعاملاً منهجيًّا، فتصميم الأبواب الخاصة بكتاب «البيان والتبيين» لم يكن عشوائيًّا. إنَّ الجاحظ أشار إلى هدفه فى تنظيم أبوابه وتقديمها وتأخيرها، مهتمًّا فى ذلك «بدينامية» ربط العناوين الخاصة مع بعضها البعض. لقد أراد الجاحظ أن يجعل باب البيان فى أول هذا الكتاب، كان يريد تصديره به، ولكن أمور منهجية دفعته لأن يؤخِّر هذا الباب؛ فيقول فى ذلك: «وكان الحق أن يكون هذا الباب فى أول هذا الكتاب، ولكنا أخَّرناه لبعض التدبير»[3].

---

(1) حمادى صمود؛ **التفكير البلاغى عند العرب**، ص147.

(2) مصطفى ناصف؛ **مفهوم البيان فى النقد العربى**.

(3) الجاحظ؛ **البيان والتبيين**، الجزء الأول، ص76.

وإشارة الجاحظ إلى وجوب هذا التأخير تُعَدُّ شكلاً منهجيًّا أراده بإرادة قاصدة، حيث دفعه التدبير دفعًا إلى هذا الأمر. وقد تبيَّن للجاحظ أن للبيان آلياته الخاصة، والتى تحتاج – بدورها – إلى مواضع وشرح واهتمام، وهذا أمر يوجب وضع بابه فى مساحة مساعدة على ذلك.

إنَّ انطلاق الجاحظ فى عرض المفاهيم البلاغية المتعددة للأجناس المختلفة، وللأقوال المأثورة فى ذلك؛ كانت كلها تدور حول إبداعية (الفصاحة + البيان + البلاغة)، حيث الرغبة فى توكيد وحدتها، واعتبارها عملية الإبداع، ودفع البراعة، فكلها تدل على الصناعة الفنية. لقد سيطرت هذه الأنساق الثلاثية بتماسكها على رؤية الجاحظ، فصنع منها دائرة بلاغية تُشبه دوائر (ليو سبيتزر) اللغوية[1].

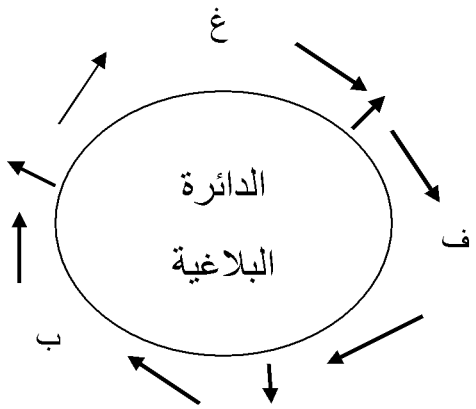

فالدائرة البلاغية عند الجاحظ – إذن – شبيهة بدوائر (سبيتزر)؛ من حيث الجوانب اللغوية المقصودة، وتأصيل وسائل التعبير، لذلك اهتم اهتمامًا بالغًا للتأصيل اللغوى لآليات التعبير وأدوات الإفصاح المتعددة، فكان حديثه عن فصاحة الآلة النطقية فى أول الكتاب

(1) تُعَدُّ دوائر (ليو سبيتزر) من أهم الملامح الأسلوبية الحديث.

«البيان والتبيين». وبالطبع فإن لهذا المكان إشارته المقصودة، ووظائفه المهدفة، فقد ربط الجاحظ فى هذا الموضع بين الفصاحة والآلة المبينة عنها؛ حيث يورد قول موسى عليه السلام وسؤاله الله سبحانه وتعالى: أن يُحْلِل العقدة من لسانه؛ فيقول: «وسأل الله عَزَّ وَجَلَّ موسى بن عمران، عليه السلام، حين بعثه إلى فرعون بإبلاغ رسالته والإبانة عن حُجَّته، والإفصاح عن أدلته»[1].

ومن هذا القول نرى طلب موسى عليه السلام فى تحقيق أمور الرسالة المنوطة به، فالرسالة تعتمد على إفصاح وإبانة، من جانب خاص تمليه عليه رسالته هذه؛ حيث تتوالى وظائفها فى:

1 – الإبلاغ «إبلاغ الرسالة».

2 – الإبانة عن الحُجَّة.

3 – الإفصاح عن الأدلة.

فمهمة الرسل تكثف – هنا كما يرى الجاحظ – فى ثلاثية معينة؛ تبدأ بالإبلاغ، والإبلاغ يحتاج إلى الوظيفة الثانية؛ حيث الإبانة عن الحُجَّة، فارتبطت الإبانة ارتباطًا وثيقًا مع وظيفة الإبلاغ، والتى تحتاج إلى وضوح الهدف، والقصد ولا تتأتى الإبانة المقصودة من الموقف إلا بالاعتماد على الفصاحة ذاتها، فهى آلتها وبدونها لا تكون مطلقًا.

لقد صنع الجاحظ سياقًا ثلاثيًّا؛ حيث يضع فيه مكانة الفصاحة، وهو سياق مرتبط بعضه البعض فى قوة تمكينية، ويصنع هذا السياق مثلثًا متماسك الزوايا، فكل زاوية ترتبط بالأخرى فى قوة.

---

(1) الجاحظ؛ **البيان والتبيين**، ط 1، ص 7.

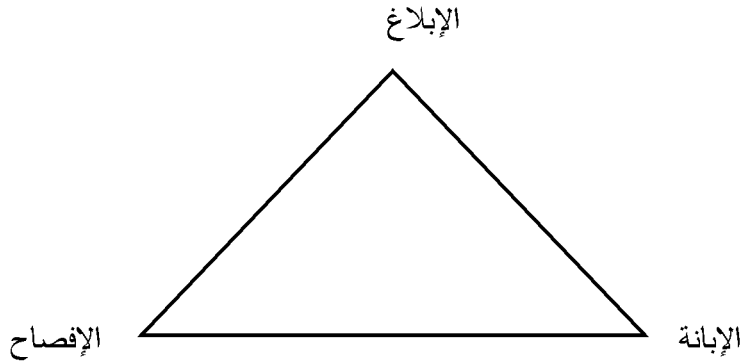

مثلث الفصاحة ووظائف الرسالة

ففى هذا المثلث نحن أما دينامية غير متوقفة، قوامها ومحورها الأساسى يتمركز فى عملية الإبلاغ؛ حيث تنطلق الحركة انطلاقًا متواليًا لا يتوقف؛ فالإبلاغ يرتبط بالإبانة، ويؤدى إليها بالضرورة الوظيفية الأساسية، والإبانة تؤدى - بدورها - إلى الإفصاح، فالإفصاح وسيلة الإبانة والإبلاغ، وبدون الإفصاح لا تظهر المهمة الموكل بها. ومن هذه المهمة الضرورية لوظائف الرسل - رضوان الله عليهم - فى عملية التبليغ، ما أشار إليه النبى ﷺ يوصف نفسه بأنه أفصح العرب، ويقصد بالفصاحة - هنا - البلاغة مجتمعة له ﷺ بكل أدواتها المتكاملة، حيث أُوْتِى جوامع الكَلِم، الذى يدخل - بدوره - فى حيِّز الفصاحة النبوية الدالة على التفوق والتفرد.

ولقد ربط الجاحظ ربطًا وثيقًا بين الفصاحة وإظهار الحُجَّة، الأمر الذى يجعلها مرادفة للبلاغة، أو العملية الإبلاغية القائمة على أصول وجهود متعددة، ولهذا يُشير إلى قول موسى - عليه السلام - وطلبه من الله سبحانه وتعالى أن يهيئ له آلة الإبلاغ؛ وهى طلاقة اللسان بالفصاحة - يقول الجاحظ: «وقال موسى: يضيق صدرى ولا ينطلق لسانى، رغبة منه فى غاية الإفصاح بالحُجَّة، والمبالغة فى وضوح الدلالة»[1].

(1) المرجع السابق، ص7.

إنَّ هذا المثال الذى يأتى بـه الجـاحظ يتـساوق فى نـسيج المـنهج الـذى تظهـر بـه عمليـة الإفصاح وأهدافها، فالفصاحة تأتى - وكما يلمِّح الجاحظ - من عدم ضيق الـصدر؛ أى مـن اتساعه، فالصدر - هنـا - هـو القلـب، واتـساعه هـو مـصدر أو آليـة حركـة اللـسان نفـسها بالسلاسة والقوة التعبيرية، وهى الفصاحة، فالفصاحة تحتـاج إلى قـوة انـشراح الـصدر حتـى يمكن لحاجة اللسان أن تنطلق. وإشارة النبى ﷺ إلى فـصاحته وبأنـه (أفـصح العـرب) هـى إشارة إلى تحقق سعة الـصدر عنـده، وهـى المحركـة - بالتـالى - للـسان ومقدرتـه التعبيريـة، فالطاقة هى طاقة قلبية.

ولارتباط الفصاحة بآلتها (اللسان) فقد طلب موسى أن يكون أخوه هـارون معـه؛ فهـو أفصح منه لسانًا، وهو ردؤ له حتى يصدِّقه الناس. وبذلك الطلب أراد موسى - عليه الـسلام - الاستعانة بقوة قولية «قوة هارون التعبيرية السليمة»، وذلـك لتحقيـق هـدف النبـوة؛ وهـو التبليغ، والقول المعين عليه، والمفاضلة التى احـتج بهـا موسـى لله سـبحانه وتعـالى تـأتى مـن استخدام اسم التفضيل (أفصح)، عندما طلـب منـه الاسـتعانة بأخيـه هـارون فقـال: ﴿وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص:34] [1].

والفصاحة لها قوتها الخاصة من حيث التأثير على المتلقى للقول، والسيطرة عليـه سـيطرة كاملة، ولهذا يعلِّق الجاحظ على طلب موسى، من حيث إرسال أخيـه هـارون بأنـه: «رغبـة فى غاية الإفصاح بالحُجَّة، والمبالغة فى وضوح الدلالة لتكون الأعناق إليها أميل، والعقـول عنهـا أفهم، والنفوس إليها أسرع»[2]. **ولقد حدَّد الجاحظ قوة الفصاحة فى قوله هذا بتلك الأمور:**

1 - الإفصاح بالحُجَّة «الإبانة»؛ وهذا هدف أساسى والوظيفة الأولى.

2 - المبالغة فى وضوح الدلالة، وبذلك يأتى التأثير الخاص المطلوب مـن طبيعـة الرسـالة «من حيث التوصيل» وحصاده.

---

(1) القصص:34.

(2) الجاحظ؛ **البيان والتبيين**، ج1، ص7.

3 – تملك الأعناق، والسيطرة على نفوس الآخرين؛ فميل الأعناق كناية تعبيرية، يقصد بها الجاحظ قوة التأثير النفسى الخاص على المتلقى وجذبه إليها تمامًا.

4 – تفهُّم العقول، والإقناع المؤدى للطاعة والسيطرة.

5 – استجابة النفوس؛ فالنفوس إلى القول الفصيح أميل وأسرع.

وكل هذه الأمور هى الغاية البلاغية ذاتها؛ فالجاحظ لا يرى هذا التفريق الثلاثى، حيث وضع (الفصاحة والبلاغة والبيان) فى بوتقة الإبداع المنصهرة.

ولا تأتى هذه الصفات والوظائف التمكينية من العقول والقلوب إلَّا بالصفات المساعدة لها من لباس التقوى، وطابع النبوة والمعارف، وتعدُّد جوانبها الثقافية – لهذا يقول فى غضون حديثه عن واصل بن عطاء: «وَعَلِمَ واصل أنه ليس معه ما ينوب عن البيان التام واللسان المتمكن، والقوة المتصرفة؛ كنحو ما أعطى الله تبارك وتعالى نبيه موسى عليه السلام من التوفيق والتسديد، مع لباس التقوى، وطباع النبوة، ومع المحنة والاتساع فى المعرفة، ومع هدى النبيين وشمس المرسلين، وما يغشيهم الله به من القول والمهابة، ولذلك قال بعض شعراء النبى ﷺ[1]:

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بداهته تنبيك بالخبر»

فالتعبير الفصيح (البليغ) لا يتأتى بمجرد المعرفة اللغوية والثقافة الخاصة بالقول وفنونه وحده، وإنما هذا القول ليس إلَّا البنية السطحية الشكلية (الأولية)، أو ما عُرفت باسم **Surface structuer** ؛ حيث تسمى بالبنية الثانية، وهى البنية العميقة **Deep Structuer** المتأصلة فى ذات القائل، حيث تحققها صفات عديدة عميقة كذلك، متمكنة فى القائل، فالبيان الحق لا يتحقق إلا بهذه الصفات:

1 – القوة والتسديد.

2 – لباس التقوى.

---

(1) المرجع السابق، ج1، ص14، 15.

3 – طابع النبوة.

4 – الاتساع فى المعرفة.

5 – المحنة والاختبار.

6 – سمت المرسلين.

علامة اللغة وصناعة الكلام عند الجاحظ :

إن اهتمام الجاحظ بآلة النطق المعبِّرة – الجهاز الصوتى – يبدو منذ الاطِّلاع الأولى على كتابه «البيان والتبيين»؛ فلقد ركَّز تركيزًا كبيرًا منذ الوهلة الأولى على الصوت وآلة نطقه. واهتمام الجاحظ بهذه الآلة وحديثه عن خروج الصوت منها، وكيف يكون ذلك هو من أصول الدرس اللغوى الحديث، من حيث صناعة نظرية اللغة باعتبارها أصواتًا يعبر بها كل قوم ويبينون عن حاجتهم بها.

وهذه الفكرة المهمة قد تلقفها (أبو الفتح عثمان بن جنى) فى كتابه «الخصائص»؛ حيث يعبِّر عن اللغة بكونها: «أصواتًا يعبِّر بها كل قوم عن حاجاتهم»[1]. وبالطبع فإن التعبير عن هذه الحاجات والغايات عند الأقوام أمر يحتاج إلى آلة سليمة حتى تأتى المادة المنطوقة سليمة فصيحة كذلك. لقد وضع الجاحظ بذرة مهمة فى أرض خصبة؛ وهى بذرة تكوين علم اللغة المقارن، حيث كان يقارن فى كتابه «البيان والتبيين» بين مخارج الحروف وعيوب النطق فى اللغة العربية واللغات الأخرى.

ولكن هذه المقارنة لم تقم على أصول تجريدية، أى أنها لم تقم بمعزلٍ عن المعنى والتعبير البلاغى. وهنا يؤسس الجاحظ لإبداعية علم اللغة، فدراسته عن الحروف ومخارجها لا تأتى من جانب واحد، فتقف عند الوصف وحده، وإنما كانت دراسته تقوم على الأهمية الإبداعية التعبيرية. ولقد عنى الجاحظ بشكلٍ خاص بما عُرف بعد ذلك بـ«بيولوجيا التكوين النطقى»،

---

(1) يُنظر: أبى الفتح عثمان بن جنى؛ **الخصائص**، تحقيق: النجار، مكتبة الخانجى، القاهرة، ط1، ص57.

من حيث طبيعة تكوين أعضاء النطق من اللثة، والأسنان، وغير ذلك.. فدرس اللثة من جوانب سمكها ومغارز الأسنان فيها، وارتباط ذلك كله بالنطق، فاللثة لها قدرة خاصة من جوانب خصائصها «البيولوجية»؛ ذلك من جهة طبيعة خروج الحروف وقوتها، وسماعها، وإشباع مخارجها.

ولا ينس الجاحظ حركة اللسان نفسه، وارتباط هذه الحركة بطبيعة خروج الحروف.

إنَّ الجاحظ يقودنا فى هذه الإشارات المهمة إلى الدرس التشريحى المتصل بعملية الإفصاح والبيان والقول، وجمع هذا الدرس فى ثلاث أبعاد هى:

وكان لهذه الأبعاد التشريحية أثرها الواضح عند (السكانى) فى دراسته عن الأسنان والألفاظ، ومخارجها وترتيب خروجها.

الوحدة الثانية – البيان والصناعة القولية :

وفى حديث الجاحظ عن البيان ومفهومه وأبعاده نراه يقصد به عدة أمور تتصل بصناعة القول ذاته، كما تتصل – أيضًا – بإظهار المعنى باستخدام آليات متعددة تساعد على ذلك – «المتتبع لكتاب الجاحظ المشهور «البيان والتبيين» يجد أنَّ لفظ البيان كان يعنى عدة أشياء؛ كان يعنى صناعة الكلام، هذه الصناعة التى خضعت لنقد أولى منذ نهاية العصر الجاهلى»[1]. فالبيان صناعة لها أصولها، وآلياتها التى تتحقق بها غاية التحقق، حيث لا يمكن حدوثها بدون ذلك.

ولقد حدَّد الجاحظ ميادين هذه الصناعة، كما حدد – كذلك – آلية كل ميدان ومجاله، واعتمد فى ذلك على صناعته المجودة المتقنة؛ فالبيان عنده «هو الدلالة الظاهرة عن المعنى الخفى»[2]. وهذا البيان قد مدحه الله سبحانه وتعالى، كما يدعو إليه ويحث عليه، وبذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخرت العرب[3].

إنَّ البيان دلالة وضوح يعمد إليها بأساليب خاصة، وكلما كانت هذه الدلالة أبين وأوضح كلما كانت أنفع وأنجع، ولذلك ربط الجاحظ بين الكيفية الدلالية، وكيفية خروج المعنى من حيزه الدقيق البعيد؛ يقول: «فكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجع»[4]. وهنا نرى الارتباط الوثيق بين وضوح الدلالة وبين وظيفة البيان نفسها، كما نرى الارتباط الوثيق – كذلك – بين وضوح الإشارة ووظائفها الإبانية «من حيث الوضوح وهدفه».

والبيان عند الجاحظ – كما عرضنا فى المحور – لا يأتى من اللفظ القولى- الكتاب وحده–؛ فاللفظ – فى مذهبه- يُعَدُّ خُمْسًا من أخماس البيان والتى رأيناها فى:

---

(1) يُنظر: مصطفى ناصف؛ **مفهوم البيان فى النقد العربى**، ص18.
(2) الجاحظ؛ **البيان والتبيين**، ج1، ص75.
(3) المرجع السابق، ج1، ص75.
(4) المرجع السابق، ج1، ص75.

1 – اللفظ.

2 – الإشارة.

3 – الخط.

4 – العقد.

5 – النصبة.

وهذه الأمور هى الهاتكة قناع المعنى القوى السميك، والذى لا يُزال – كما يرى الجاحظ – إلا بمهارة واعية يمتلكها صاحب البيان وطرقه المتعددة. ولهذا الأمر يُشير إلى طبيعة المعنى الممتدة، والمتسعة، بحيث لا تُحيط بهذه الطبيعة أداة واحدة من أدوات كشف المعنى، وهتك حجبها، ولهذا يقول: «ثم اعلم – حفظك الله – أن حُكم المعانى خلاف حُكم الألفاظ؛ لأن المعانى مبسوطة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعانى مقصورة معدودة ومحصلة محدودة»[1]. فهذا القول يُعَدُّ تمهيدًا ذكيًّا ماكرًا من الجاحظ لتحقيق نظريته المقصودة عن البيان وأدواته، فالمعانى المحدودة بلا حدود تجعل محاولة اقتناصها أمرًا مستحيلاً صعب المنال، ولذلك كان من الضرورة اللجوء إلى أدوات أخرى للوصول إليها؛ أدوات غير اللفظ القولى أو اللفظ المكتوب نفسه.

ولهذا السبب الذى أبداه الجاحظ فى طرق وضع المعانى وغاياتها كانت الضرورة المفروضة فى تناول طرق الكشف البيانية الخماسية – والتى أشرنا إليها –؛ وجمعها الجاحظ فى آليات معينة هى:

الأول – اللفظ :

وهى الأداة الأولى التى يتعرض لها الباحث فى حيز درس البيان وأبعاده، وترتبط الأداة اللفظية بوظيفة الوضوح، أو الإفصاح؛ الذى يريده الجاحظ. ولقد عنى باللفظ وطرق تكوينه

(1) المرجع السابق، ج1، ص76.

عناية فائقة، فرأينا درس علم اللغة، بمخارج الألفاظ، وطبيعة تكوينها وحركتها، كما شاهدنا القضية المهمة فى الدرس النقدى؛ ونقصد بها (قضية اللفظ والمعنى).

البُعد الثانى – الإشارة ودلالاتها التعبيرية :

والإشارة – عند الجاحظ – أداة من أدوات البيان؛ فهى الآلة الثانية التى ارتكز عليها لكشف قناع المعنى كوظيفة بيانية أساسية. ولقد حدَّد الجاحظ طبيعة الإشارة والآليات المكونة لها، فتكون باليد والرأس، وبالعين والحاجب، والمنكب؛ إذا تباعد الشخصان، وبالثوب والسيف. وقد يتهدد رافع السيف والسوط، فيكون ذلك زاجرًا ومانعًا رادعًا، ويكون وعيدًا وتحذيرًا[1].

فالمرتبة الثانية لأدوات كشف أمور البيان هى طبيعة إشارية تماثل – تمامًا – طبيعة اللغة ووظائفها الإشارية الدلالية، ولهذا السبب فإن الجاحظ يعطى «الإشارة» المرتبة الثانية لآليات البيان، فتأتى مباشرة بعد التعبير باللفظ؛ فرسم لهذا السبب خطوات التعبير الإشاري بأدواته فى:

1 – اليد.

2 – الرأس.

3 – العين والحاجب.

4 – الثوب.

5 – السوط.

والإشارات المتولدة من هذه الآلات، لا يصلح التعبير اللفظى بأن يكون بديلاً عنها، لأن لكل آلة مجالها التعبيرى الخاص، والدال، فهى فى موقعها التعبيرى أفصح وأبين من استخدام اللفظ الصوتى أو الكتابى.

---

(1) المرجع السابق، ج1، ص77.

والمجالات الإشارية التى عبَّر عنها الجاحظ بآلياتها هى حقل «سيميائى» خصب، يعتمد على استخدام أدوات إشارية، يُعَدُّ تفسيرها دراسة فى المجال السيميائى الجديد. وقد اهتم الجاحظ اهتمامًا بالغًا بدينامية الإشارة، وبحركاتها الضدية، مثل حركة السيف وما تعنيه من أبعاد سلبية وإيجابية، وكلها حركات إشارية يُتفق عليها اجتماعيًّا.

وعنى الجاحظ بالربط بين الإشارة ووظائفها، وبين اللفظ من حيث الوظائف المتولدة من الاستخدام، ولكن لكل منهما مجاله الخاص به، فلا يغنى واحدًا عن الآخر؛ فالإشارة لا تُغنى عن اللفظ، واللفظ لا يُغنى عن الإشارة، فالإشارة دلالتها المعينة فى كل طبقة من الطبقات التى تستخدمها، وتجعلها مجالاً ومدارًا لها - يقول عن الوضع الدلالى لكل علامة فى مجتمعاتها المختلفة: «فهل تعدو الإشارة أن تكون ذاتها صورة معروفة، وحلية موصوفة، على اختلافها فى طبقاتها ودلالاتها»[1].

فالإشارة صورتها المعروفة المتولدة من طبيعتها ومن «ديناميتها» فى سياقها التعبيرى بين المعطى لها والمتلقى لدلالاتها، من حيث توليد المعانى المطلوبة؛ والتى لا تُفهم إلا من خلال الطرفين، وأشهر الإشارات بعد اليد تأتى من العين، وهى إشارات لها أبعادها المختلفة من حيث المعانى البعيدة، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى فى دلالات العين الخفية وأثرها: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:19].

ولقد ربط الله سبحانه وتعالى بين خائنة الأعين وأبعادها الإشارية، وبين القلوب - الصدور - وما تخفيه من نوايا وقصد لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، ولهذا يقول الجاحظ: «وفى الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح، مرفق كبير، ومعونة حاضرة، فى أمور يسترها بعض الناس من بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس»[2]. فالإشارة تعطى دلالاتها فى خصوصية ثنائية بين «المعطى لها والمتلقى لأسرارها» المتفق عليها بينهما، إذ يريد

(1) المرجع السابق، ج1، ص78.
(2) الجاحظ؛ **البيان والتبيين**، ج1، ص78.

القائل توصيل أبعاد هذه الخاصة للمتلقى وحده وسط حشود الناس الذين لا يعرفون رموزها المرسلة - «فلولا الإشارة لم يتفهم الناس معنى خاص الخاص»[1].

فالإشارة – إذن - هى تعبير خاص الخاص؛ أى هى لغة منتقاة لخصوصية تعبيرية معينة، ليست لعامة المتلقى، وإنما هى لخاصته وحده، فلا يشترك فى فهمها أحد إلا ذهبت قيمتها ووظائفها المحققة فيها، والمطلوبة منها.

وحسب منهج الجاحظ فى تجميع المواد التطبيقية المعبرة عن رؤيته فإنه يأتى بالشواهد الشعرية، والتى تؤيد رأيه ومنهجه فى شرح الوظائف الإشارية؛ ومنها قول الشاعر[2] :

أشارت بطرف العين خيفة أهلها إشارة مذعور ولم تتكلَّم

فأيقنت أن الطرف قال مرحبا وأهلاً وسهلاً بالحبيب المُتيم

فاختيار هذا الشاهد جاء للتعبير عن وظيفة إشارة العين، من حيث الرغبة فى الإخفاء، ولكن الجانب الآخر يفهم هذا الإخفاء الإشارى فيترجمه إلى تعبير داخلى.

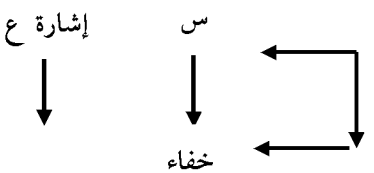

وتتوالى الشواهد الخاصة والتعبيرات الواصفة لطبيعة الإشارة عند الجاحظ، فيتحدَّث عن حُسن الإشارة باليد: «وحُسن الإشارة باليد والرأس من تمام حُسن البيان واللسان، مع الذى يكون مع الإشارة من الدل والتقتل والتثنى واستدعاء الشهوة، وغير ذلك من الأمور»[3].

---

(1) المرجع السابق، ج1، ص78.
(2) المرجع السابق، ج1، ص78.
(3) المرجع السابق، ج1، ص79.

وقبل الحديث عن حُسن الإشارة تحدث الجاحظ بذكاء شديد عن حُسن اللفظ وقوته، ولهذا يقول: «ولن تكون حركات اللسان لفظًا أو كلامًا موزونًا ولا منثورًا إلَّا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلامًا إلَّا بالتقطيع والتأليف»[1].

ويضيف الجاحظ صفات الصوت قبل ذلك، وكيف يكون آله مؤثرة وذلك بقوله: «الصوت: هو آلة اللفظ، والجوهر الذى يقوم به التقطيع وبه يوجد التأليف»[2].

لقد عقد الجاحظ موازنة ذكية بين طبيعة تكوين اللفظ بأبعاده، من حيث الصوت وظهوره، وتحويل حركات اللسان إلى صوت، وبدون تحولها تكون هذه الحركات صامتة لا قيمه لها من حيث التعبير، فالحروف لن تكون حروفًا - كما يشير الجاحظ - إلا من خلال التأليف والتقطيع...

الصوت = آلة اللفظ = الجوهر الذى به التأليف.

الموزون من الكلام يعتمد على ← الصوت بحركاته وأبعاده.

حُسن الصوت وقوته وفصاحته = هو من حُسن البيان؛ كما يُشير الجاحظ.

البُعد الثالث – الخط :

ويأتى البُعد الثالث من أبعاد البيان وصناعته الخاصة بكشف قناع المعنى بكل الطرق والأساليب، وهذا البُعد هو الأداة التعبيرية عمَّا فى داخل الإنسان؛ فهو الآلة المعبرة عن المعنى الداخلى، وبدونها لا يستطيع المرسل إظهار رسالته، فكيف يكون ذلك وقد ذهبت آلة التعبير، ولهذا فإن الجاحظ يُشير إلى قَسَم الله سبحانه وتعالى بالخط والحروف؛ فأقسم: (بنون والقلم وما يسطرون)؛ حيث أداة التعبير المظهرة لدلالات التعبير الداخلى.

ويأخذ الجاحظ هذه الإشارة القرآنية اللافتة لقيمة أسلوب التعبير، من حيث المادة المظهرة للدلالات البيانية، فارتباط الآلة بالهدف من أهم وظائف التعبير عن مكانة الخط،

---

(1) المرجع السابق، ج1، ص79.

(2) المرجع السابق، ج1، ص79.

ولهذا كان حديث الجاحظ عن الكتب وصناعتها، وما لهذه الصناعة من أسس وجهود.

لقد وضع الجاحظ بذور العناية بالمادة الكاتبة للرسالة الأدبية ذاتها، وكان لهذا التأسيس جذوره وامتداده. لقد أثرت هذه الرؤى الجديدة فيمن جاء بعد الجاحظ؛ فنرى (أبا جعفر النحاس) يُشير إلى الكتابة فى كتابه «صناعة الكتاب»، وربطها بعملية التعبير والهجاء، فيخصص فى هذا الكتاب بابًا باسم (باب الاصطلاح فى الخط) [1].

ولقد اهتمت الدراسات الحديثة بالخط ووظائفه من جانب الرسالة الأدبية المرسلة، بل إن الاهتمام بدا ظاهرًا بشكل الكتابة ذاتها، وأثر هذا الشكل فى المتلقى، ووظائفه التفسيرية لها.

البُعد الرابع – بيان العقد والحساب :

والعنصر الرابع الذى يعمل على كشف حجب المعنى وإظهاره هو العقد أو الحساب، وطرقه البُرهانية. واعتبار الحساب من أدوات الكشف البيانية أمر من الأمور الفنية النادرة التى يضيفها الجاحظ إلى منهجه وتفكيره البلاغى الخاص.

ومن هنا جمع الجاحظ بين اللفظ والخط والعقد (الحساب) بقوله: «وفى عدم اللفظ وفساد الخط، والجهل بالعقد فساد جل النعم، وفقدان جمهور المنافع، واختلال كل ما جعله الله عَزَّ وَجَلَّ لنا قوامًا ومصلحة ونظامًا»[2].

لقد قرن الجاحظ – بذكاءٍ شديد – بين التعبير الصوتى فى اللفظ، من حيث الكشف القناعى لحجب المعنى ذاتها، وبين الخط الذى نراه استنطقه بهذه الصلة الوثيقة. لقد جعل أداة تتحدث عن نفس صاحبها، الكاتب للكلام.. ومن هنا جاءت فنون الخطوط، ولقد ربط الجاحظ بين فساد النعم كلها وبين فساد الحساب، وعدم معرفته، وذلك لأهميته فى عملية

---

(1) يُنظر: أبا جعفر أحمد بن محمد النحاس فى كتابه «**صناعة الكتاب**»، باب «الاصطلاح فى الخط»، حيث يُشير لأهمية الجانب الإبلاغى وربط الخط بطريقة التعبير الإملائية؛ حيث يتحدث عن أصل حروف الكلمات، وكيف جاءت، وما حدث لها من تغيير.

(2) الجاحظ؛ **البيان والتبيين**، ج1، ص80.

الإقناع نفسها، وهذا الربط تعبير مقصور عن قيمة العمليات الحسابية، والتى تعتمد على الكمية، فميدانه الكمى ميدان دقيق المسلك يحتاج إلى عقلية لها قدراتها الخاصة.

ولقد عاش الجاحظ عصر الازدهار العلمى؛ حيث امتدت العلوم بأبعادها، وكثُرت الترجمات العلمية المتعددة، والتى لم يتركها الجاحظ حتى اطَّلع عليها.

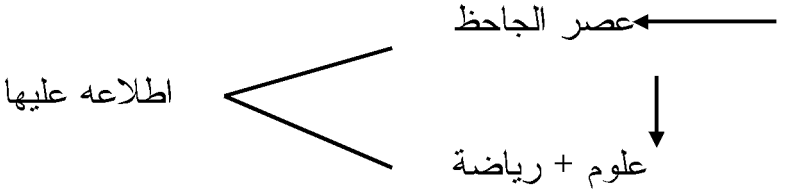

البُعد الخامس – النصية :

وأمَّا النصية فهى أداة الكشف البيانى الأخيرة فى أدوات التعبير، والتى يذكرها الجاحظ، والنصية حال يدعو وجوده للتأمل، ومن ثَمَّ تفاعل دينامية «البيان والتبيين» ذاتها، فهى حال الدعوة إلى التأمل واستنطاق الساكت، وهى بيان لا ينطق، ولا يستخدم اللفظ، أو الإشارة، أو الخط والحساب، وإنما النصية – كما نرى – بيان يعتمد على بلاغة الهيئة نفسها، والحادثة من غير لفظ، أو إشارة – كما يقول الجاحظ.

وتبدأ بلاغة النصية من التأمل، خاصة تأمُّل آيات الكون الموجودة، ولهذا يستشهد الجاحظ بقول الله تعالى: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ﴾ [آل عمران:137]، وقوله سبحانه: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:21]. إنها دعوة الربانية للرؤية التأمُّلية، ولذا قال الجاحظ: إنَّ النصية تأتى من مجال الصمت، فيتحول إلى مجال القول المبين.

ففى النصية يأتى التعبير اللفظى، ولكنه دونما نُطق آلة النطق المسمعة والمعبِّرة بالأصوات، إنه نُطق صامت يأتى من التأمل والإشارة بغير اليد أو النطق، أمرٌ نراه فى خلق السماوات والأرض، حيث الامتداد الكونى، والوضوح الدلالى البائن، والذى لا يحتاج معه

إلى استنطاق، أو إلى استخدام آلات التعبير المتعددة من لفظٍ وغيره.

فالنصية تعتمد على الموعظة المستنتجة من المواقف المتضادة، فالصامت ناطق بنطق آخر، والجان نام.

فالحركية الضدية فى الحياة تولِّد دلالات بيانية عميقة، لا يصل لأغوارها إلَّا من تأملها تأملاً عميقًا، ولهذا شرح الجاحظ كيفية النطق والاستنتاج والاستنطاق، وذلك بفعل الحال المعبرة. إنَّ العظة التى نراها فى الموات تستنطق بفعل الحال المعبرة.

إنَّ دلالات الحالة النصية هى دلالات توليدية تأتى من دينامية الصمت نفسه، فالصامت ناطق من جهة الدلالة. ولقد ربط الجاحظ المعتزلى حال التعبير عن بلاغة النصية هذه بشواهد خطابية؛ أهمها: أقواله، وأقوال بعض الخطباء – «أشهد أن السماوات والأرض آيات دالات، وشواهد قائمات، كلٌّ يؤدى عنك الحُجَّة، ويشهد بالربوبية، موسومة بآثار قدرتك، ومعالم تدبيرك، التى تجليت بها لخلقك، فأوصلت إلى القلوب من معرفتك ما أنها من وحشة الفكر، ورجم الظن، فهى على اعترافها لك وافتقارها إليك، شاهدة بأنك لا تُحيط بك الصفات، ولا تجدك الأوهام، وأن حظ الفكر فيك، الاعتراف لك»[1].

هذا الشاهد الخطابى التأملى، والذى يحتوى على المناجاة الإلهية يدل على أهمية النصية كعامل بيانى له تفاعلات – دينامية – غير النطق نفسه، بل هو أبلغ من الحديث، لأنها أمور باقية لا تتغير أو تتبدل، والكلام يذهب ويتغير، فالبيان تعبير واستخراج الدلالات عما خفى وغمض، واندفش يعمق فى الضمير. هذا هو البيان الذى يريده الجاحظ، بل ويعتبره صفة ماهرة، تحتاج إلى دربة وممارسة خاصة، فلا يملك ذلك إلا أفراد مميزون.

وحديث الجاحظ عن النصية، ودلالاتها، خاصة على وجود الله سبحانه وتعالى تُعَدُّ أمرًا مهمًّا من الأمور الاعتزالية؛ فهى أداة من أدوات علم الكلام، أى أنها علامة مهمة من علامات الإيمان والإقناع.

---

(1) الجاحظ؛ **البيان والتبيين**، ط1، ص81.

إنَّ مفهوم البيان عند الجاحظ دال على تداخلات ثقافية متعددة وبالتالى امتدت مساحته فى حيِّزٍ كبير، ولم تقف عند حدود صغيرة ضيقة، فالتأصيل المعرفى الذى رأيناه فى المحور الأول يدل على أن صناعة البيان هذه ليست صناعة أحادية فردية، فتقف عند حدّ اللفظ وحده، فاللفظ أحد أعمدته المؤسسة له، ولكنه ليس بواحدها.

ولكن لماذا ارتكز البيان عند الجاحظ على خماسية وليس رباعيًا أو سداسيًا، نستطيع القول: أن الأصول الاعتزالية كان لها كبير الأثر فى هذا التقسيم، فالكلام جزء من خماسية بيانية، وليس هو كل أدوات البيان، **فالخماسية البيانية تتقارب مع خماسية المعتزلة والمتمثلة فى:**

1 – القول بالتوحيد.

2 – القول بالعدل.

3 – القول بالوعد والوعيد.

4 – القول بالمنزلة بين المنزلتين.

5 – الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[1].

فالتقسيم الخماسى للبيان عند الجاحظ (اللفظ، الإشارة، الخط، العقد– الحساب ـ، النصية)؛ حيث لا يزيد ولا ينقص عن هذه الخماسية، هذا كان تأكيدًا على خماسية البيان، والتى لا تزيد عنها مهما كانت الظروف، بل ولا تنقص كذلك مهما كان الأمر، ومعنى ذلك: ثبوت العدد خمسة بأهميته الاعتزالية.

ورغم اعتماد الجاحظ عل خماسية البيان والمشكَّلة له فإنه يسير فى حديثه عنه فى طريقه المنهجى المعتمد على جمع المواد العلمية من كل حَدْبٍ وصوب، يعمل فيها عقله بعد الجمع، ومن بين هذه المجموعة تعريف (جعفر بن يحيى) للبيان، فيحرص الجاحظ على أخذ الآراء

(1) راجع: أحمد أمين؛ **ضحى الإسلام**، ج3، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1962م، ص21، 22.

المتعددة لمفهوم البيان؛ وخاصة إذا كان الراوى معتزليًّا، فقد نقل عن (ثمامة بن أشرس)، وعن (جعفر بن يحيى) رؤيته عن البيان؟ ويرد جعفر بن يحيى بقوله: «أن يكون الاسم يحيط بمعناك ويجلى عن مغزاك وتخرجه من الشركة، ولا تستعين عليه بالفكرة، والذى لا يدله أن يكون سليمًا من التكلف، بعيدًا عن الصنعة، بريئًا من التعقد، غنيًّا عن التأويل»[1].

ولقد استعان القائل لهذا التعبير عن البيان بما جاء من صحائف بلاغية، خاصة صحيفتى «الهند وبشر بن المعتمر»، وقول يحيى عن البيان يناقش ثنائية أساسية فى التراث النقدى، وهى ثنائية «اللفظ والمعنى»، من حيث وظيفة الإبانة، وعلاقة اللفظ بالدلالات المتولدة منه، من جانب السياق، والصناعة الأسلوبية.. فالاسم - عند الجاحظ - هو اللفظ عينه، إذن غاية قوله (جعفر بن يحيى) هو الوضوح، وهذا أمر يسير وفق هدف الجاحظ نفسه من وظيفة البيان، حيث الظهور والكشف عن قناع المعنى، وإظهار ما خفى من دلالات بعيدة عن التستر والغياب.

البيان والشجاعة القولية:

ويُشير الجاحظ إلى حاجة البيان لقوة إخراجية له فى خماسيته، ولكن المجال القولى أشد حاجة لها، وقوة البيان القولى تتمثل فى: المجابهة، وانتهاز الفرصة - فيقول فى ذلك: «قد سمعنا القوم واحتجاجهم، وأنا أوصيك ألا تدع التماس «البيان والتبيين» إن ظننت أن لك فيهما طبيعة، وأنهما يناسبانك بعض المناسبة، ويشاكلانك فى بعض المشاكلة، ولا تهمل طبيعتك فيستولى الإهمال على قوة القريحة، ويستبدلها سوء العادة، وإن كنت ذا بيانٍ وأحسست من نفسك فى النفوذ فى الخطابة والبلاغة، وبقوة المنة يوم الحفل، فلا تقصر فى التماس أعلاها سورة، وأرفعها فى البيان منزلة، ولا يقطعنك تهيب الجلاء، وتخويف الجبناء، ولا تصرفنك الروايات المعدولة عن وجهها، المتأولة على أقبح مخارجها»[2].

---

(1) الجاحظ؛ **البيان والتبيين**، ص106.

(2) المرجع السابق، ص200، 201.

ومن خلال السفر مع قول الجاحظ هذا المطول فإننا نصل فى نهاية القراءة إلى هذه العناصر:

1 – جمع الجاحظ بين الأقوال الأخرى، وبين قوله هو، ونرى تركيزه على كلمات مفاتيح تدل على ذلك مثل (قد سمعنا)، (قالوا).

2 – يُعَدُّ هذا القول من باب الوصايا الأدبية التى كانت شائعة فى عصره، ووصية أبى تمام لتلميذه البُحترى ليست منه ببعيد.

3 – إنَّ منهج الجاحظ فى «البيان والتبيين» يعتمد على الجوانب العملية، والممارسة الفعلية التطبيقية.

4 – إن ثنائية «البيان والتبيين» تؤكد الصنعة، التى استنتجت من مذهب الجاحظ، وهى صنعة تقوم على الإبداع. ومن هنا تلمح أهمية ربط «البيان والتبيين» نفسه، مع الوظائف الإبداعية الدلالية.

5 – ربط البيان بالخطابة والبلاغة واهتمام الجاحظ نفسه بهذا الربط فهو – كما رأينا – بليغ خطيب.

6 – هناك درجات خاصة للبيان – حيث الإشارة إلى أعلاها، ومعنى ذلك أن دون هذه المنزلة منازل أخرى.

7 – الجرأة البيانية، والموقف ودوافع القول، وعدم التهاون فى ذلك – وتلك إشارة جاءت من انتشار المناظرات، وكثرتها المعروفة فى عصر الجاحظ، وتلك أمور تحتاج إلى جرأة، وعدم تخوف.

ورؤية الجاحظ للبيان تجعلنا نشير إلى رؤيته – أيضًا – عند ابن القيم الجوزيه، حيث يربط ربطًا وثيقًا بين الهداية وبين البيان؛ فيقول: «فالهداية هى البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلَّا من جهة الرسل، فإذا حصُل البيان والدلالة، والتعريف، ترتب عليه هداية التوفيق، وجُعل الإيمان فى القلب، وتحبيبه إليه، وتزيينه فى القلب، وجعله مؤثرًا له راضيًا فيه»[1].

---

(1) أبو عبد الله محمد بن أبى بكر «ابن القيم الجوزيه»؛ **مدارك السالكين بين منازل (إياك نعبد وإياك نستعين)**، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الجزء الأول، ص15.

الوحدة الثالثة – الأنساق البلاغية :

إنَّ دراستنا فى هذا العمل ترتكز على المفهوم البلاغى، ومن ثَمَّ فإننا ندخل فى دائرة الاختيارات التى جمعها الجاحظ، فجاءت معبرة عن طبيعة عقله وعلمه – وقد عملت هذه الرؤية من زوايا فنية هى:

1 – زاوية القائل: البليغ وطبيعته، وثقافته، وصفاته، والقائل فى هذا الزاوية يتلاقى مع مصطلح (جاكيسون) «المرسل».

2 – زاوية النسق: وهى الرسالة عند (جاكيسون)؛ حيث عملية التبليغ نفسه، وما يستمد به من رسائل أسلوبية، تعتمد على الجوانب الشفوية، أو الكتابية.

3 – زاوية المقام: والزاوية الثالثة تقوم على طبيعة المقام، وما يتطلبه من قول.

4 – زاوية المتلقى: وترتبط هذه الزاوية مع الزوايا السابقة، حيث تراعى مقاماته، واحتياجاته التعبيرية حسب طبيعة فهمه، ومستواه المحدد، فلا يجب مخاطبة سيد الأمة بكلام الأمة، ولا يجب أيضًا مخاطبة الأمة بكلام سيد الأمة.

واختيار الجاحظ للمفاهيم البلاغية، ومن ثَمَّ عرضها بطريقته الخاصة أمر يرتبط ارتباطًا وثيقًا بأنساقه التعبيرية وطبيعة عرضها؛ حيث يتولد منها أنساقًا بلاغية، تأتى بعد تدقيق وتمحيص دائبين، فالاختيارات تبدو فى شكلها مكررة، ولكنها غير ذلك. إن هذا الشكل أمر فنى قصد الجاحظ إليه قصدًا، فلكل تعريف نسق وظيفة ترتبط مع الآخر، فينضم إليها فى (دينامية) قوية، حتى تتكون نظريته الأسلوبية، وبما أن الأسلوب يقوم – فى أساسه – على الاختيار؛ فإن الجاحظ يختار أنساقه البلاغية فى بُعْدٍ تشكيلى معيَّن، فعملية اختيار وانتقاء الوحدات الخاصة بالمفاهيم والاستشهادات هى رؤية تشكيلية مقصودة، فالمواد المختارة تُشبه تمامًا مواد الصناعة الأدبية؛ مواد الإبداع عند الأديب نفسه. إن الاختيارات تُعَدُّ بمثابة الكلمات، أو اللغة العادية، ولكن وضعها فى أشكال نسقية معينة هى العملية الإبداعية.

ولقد ولَّدت هذه الرؤية الإبداعية عند الجاحظ مصطلحًا خاصًّا هو مصطلح (المناسبة)،

والتى يقصد به توافق (المقام مع المقال) أى اتفاق الأنساق التعبيرية مع الموقف الذى يتحدث عنه؛ أى عملية المناسبة التشكيلية.

ومن خلال مصطلح المناسبة تأتى مشكلة اللفظ والمعنى، وعملية اختيار (الاسم)، كما يطلق الجاحظ على اللفظ، وكيف يشاكل اللفظ المعنى المتفاعل معه؟ وكيف يعبِّر هذا التفاعل عما داخل المؤلف؟ وكيف يكون اللفظ التعبيرى مناسبًا (إبداعيًا) للموقف الشفوى التعبيرى أو موقف الكتابة الأدبية نفسها؟ فعملية المناسبة – إذن – هى عملية التوافق الإبداعى بين الكلام والموقف، عملية توافق أقدار الألفاظ مع أقدار المعانى.

ومصطلح الأقدار هذا يدخل فى حيز مساحة مصطلح المناسبة، فالجاحظ يعتمد على النظام التوليدى؛ توليد مصطلح من آخر. ولقد أشار بشر بن المعتمر إلى مصطلح الأقدار فى صحيفته، وبذلك نرى دينامية تكوين واختيار المفاهيم والوعى بها.

وتمتد المساحة المخصصة (للأقدار) بأبعادها الإبلاغية الإبداعية، حتى حوت داخلها المقامات، وهيئاتها، ولذلك ارتبطت (الأقدار) مع عناصر فنية أخرى لتحقيق القيم الإبداعية، وذلك لتحقيق العمل الأدبى، ولهذا نرى الإشارة إلى السامع أو المتلقى، وإلى الكلام (المادة المؤلفة)، وكذلك المقام (الموقف) الداعى إلى القول، والمواقف؛ أى الأقدار والأحوال وعملية التأمل المنتجة للإبداعى نفسه.

ولقد عنى الجاحظ عناية فائقة بمصطلح (آلة البلاغة)؛ فهى قوانين خاصة تتصل بعملية الإبداع القولى (بشكل أساسى). بالطبع لقد عاد الجاحظ إلى صحيفة أهل الهند، والتى عرضها قبل صحيفة بشر بن المعتمر، والتى تعد أساسًا لها[1].

وتعنى آلة البلاغة بزاوية القائل (المبدع) وبضرورة العناية الكثيفة بكيفية الاستعداد للقول. ولهذا ارتبطت هذه الآلة البلاغية بالمَلَكَة (المقدرة الخاصة للتعبير)، فلا يمكن تحقيقها بدون فاعلية المَلَكَة وتحركها.

---

(1) لقد أشار إحسان عباس إلى أثر الصحيفة الهندية فى صحيفة بشر بن المعتمر، وذلك فى كتابه «**تاريخ النقد الأدبى**»، ص67.

وتتكون مَلَكَة التعبير من خلال بُعدين مهمين: بعد داخلى، والآخر خارجى (أو صناعى)، يضاف إلى الجانب الآخر (الأول). وتصقل المَلَكَة هذه بقوة الدربة الاستمرارية بطاقاتها غير المتوقفة مطلقًا، ولهذا كان لها أوقاتها الإبداعية، فيجب تخيُّره وانتهازه. وإذا كان بشر بن المعتمر قد أشار إلى تخير مثل هذه الأوقات، فإن الجاحظ قد أشار إلى ضرورة معرفة أوقات الإبداع؛ حيث يتحدث عن أهمية الوقت فى الحفظ والإبداع واختيار ساعته الخاصة – فيقول فى رسالة المعلمين: «ولصاحبا الحفظ سبب آخر يتفقان عليه، وهو الموضع والوقت، فأما الموضع فأيهما يختارا إذا أردنا ذلك الغوق دون السفل، وأما الساعات فالأسحار دون سائر الأوقات، لأن ذلك الوقت قبل وقت الاشتغال، ويعقب تمام الراحة والجمام، لأن للجمام مقدارًا هو المصلحة، كما أن للكدر مقدارًا هو المصلحة» [1].

وواضح أثر الإشارة الفنية لبشر بن المعتمر فى (دينامية) التحرير الوقتى لعملية الإبداع، من حيث طبيعة وقت السحر، وما له من صفات مميزة. ولا تمر هذه النقطة المهمة فى اختيار أوقات الإبداع دونما الحديث عن الطبع، وأهميته فى عملية الإبداع، والذى يتأتى للمبدع بأمور معينة، تتصل بطبيعة قوة الخيال، وخاصة عند معاصر الجاحظ العالِم الفقيه (ابن قتيبة) – فيُشير إحسان عباس إلى دوافع الإبداع عنده قائلاً: «ولما وقع ابن قتيبة فى نطاق الحديث عن الطبع (بمعنى المزاج)، كان لابد له أن يلتفت إلى الحالات النفسية وعلاقتها بالشِّعر، وقد تناولها من ثلاث جوانب.

أ – من جانب الحوافز النفسية: الدافعة لقول الشَّاعر؛ كالطمع والشوق والطرب والغضب، وما يُثير هذه الحوافز كالشرب، والمناظر الطبيعية الجميلة.

ب – من جانب العلاقة بين الشاعر والزمن: لأن بعض الأوقات ذو تأثير خاص فى المزاج الشعرى، كأول الليل قبل تفشى الكرى، وصدر النهار قبل الغذاء.

---

(1) الجاحظ؛ **رسالة المعلمين** – ضمن رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت – لبنان، 1991م، الجزء الثالث، ص30.

ج – مراعاة الحالة النفسية فى السامعين (أى فى الجمهور): تعليل البداية بالبكاء والوقوف على الأطلال» [1].

فابن قتيبة يحدد أهمية الزمن فى دفع العملية الإبداعية، ومن ثَمَّ تولى دينامية التعبير الأدبى نفسه، فنحن أمام ثلاثية نظمها ابن قتيبة، وحدَّد بها طرق التعبير الفنى، لقد صنع مثلثًا متساويًا فى زوايا لتمثيل الطاقات الإبداعية.

وتتسع دائرة المَلَكَة التعبيرية لتتقابل – بالضرورة – مع المقدرة والهيئة عند الجاحظ، وذلك من حيث الشكل الدال على التمكن التعبيرى، وهذا التمكن التعبيرى لا يتأتى من خلال دوافع وصلات خاصة. ويقصد بالهيئة (السيمات الإشارية) الدالة على المقدرة القولية من حيث طبيعة علامات التمكن، والمتولدة من الثقة، والمتحركة – بدورها – من محور المَلَكَة والتى تنتج قوة الاستطاعة الخاصة. فالمَلَكَة تسيطر بقوتها على أبعاد التكوين البلاغى بعناصره المتعددة كلها.

ويتصل حُسن التصرف فى القول الإبداعى، بهذه الدينامية الاتصالية، والمتحركة من جانب المَلَكَة، فالتصرف فى القول لا يتحقق – مطلقًا – بدون المَلَكَة القولية الدالة على حُسن الذكاء، فالمواقف البلاغية؛ وخاصة الشفوية منها تعرض القائل للمتلقى فى مجابهة واضحة، حيث يواجه المتلقى خطابه الإبداعى مباشرة من غير حجاب، فالمبدع أمام السامع، وللسامع مواقفه المعبرة، والتى تتولَّد من انفعاله الخاص، حيث يسمع القول الموجَّه له من البليغ. وبالطبع فلهذا الانفعال تعبيراته الفورية، والتى تأتى فى حالها سريعًا، وهذا أمر يحتاج إلى تصريف خاص، أو حُسن تخلص من المبدع.

إنَّ حُسن التصرف يحتاج – قطعًا – إلى قطع للسياق مع الاستمرار فى التعبير؛ أى أنَّ الأمر يحتاج إلى نوع معين من البلاغة، فالسياق القولى يجب أن يتخلخل رغم هذا القطع

---

(1) انظر: إحسان عباس؛ **تاريخ النقد الأدبى عند العرب**، ص111، وينظر أيضًا: ابن قتيبة؛ **الشعر والشعراء**، ج1، ص20.

المفاجئ له. وبسبب هذه الصفات المطلوبة من شجاعة القول فإن الجاحظ قد أشار إلى الآفة التى تحيق بالبليغ، وتفت فى قوته، ومن ثَمَّ فى مقدرته البلاغية فتودى بهذه الصفة التعبيرية عنده – يقول فى رسالة المعلمين: «والآفة الكبرى أن يكون البليغ ردىء الطبع، بطىء اللفظ، كليل الجد، شديد العُجب، ويكون مع ذلك حريصًا على أن يُعَدُّ من البلغاء شديد الكلف بانتحال اسم الأدباء... فإذا كان كذلك خفى عليه فرق ما بين إجابة الألفاظ، واستكراهه لها»[1].

فآفة (القائل) – وهو البليغ – مثَّلها الجاحظ فى رسالة تتصل بالجوانب التعليمية، وما تتطلبها هذه الجوانب من عوامل، وعناصر متعددة، فهذه الآفة ترجع إلى أمور اتفاقية، عُرفت بالطبع، وذلك من خلال طبيعة الممارسة القولية نفسها، ولهذا كان التحذير الموجه بكل قوة إلى من يتعاطى القول البليغ، **ويتمثل هذا التحذير فى:**

1 – **دائرة الطبع:** وهذا أمرٌ واضح الدلالة والإشارة المباشرة إلى المَلَكَة ووظائفها، والتى تصقل البليغ، فتمحو تلك الرداءة وتُعطيه طبعًا مشرقًا مضاءً، فرداءة الطبع تحث المقدرة التعبيرية عند (البليع)، ولذلك فإن إصابة هذه الطاقة (المتولدة) من المَلَكَة الصافية بالرداءة أمر يُبعد القائل عن تحقيق (دينامية) التعبير الفنى.

2 – **بطء اللفظ:** أى بطء اللفظ المناسب للمعنى الذى يروقه القائل، فالبطء دال على عُقم مَلَكَة التعبير، وعدم تمكُّن مقدرة الاختيار الناتج من قوة التصرف والتعبير، كما يعبر هذا البطء – أيضًا – على عقم ثقافة البليغ والمتصلة بدينامية المَلَكَة، والتى تتكون بها وتأتى معها صفة الطلاقة؛ طلاقة اللسان، الناتجة من عملية (فسيولوجية) معقدة، فحركة اللسان (آلة اللغة التعبيرية) لا تتحرك حركتها الانطلاقية إلَّا من خلال طاقة المَلَكَة اللغوية، (فدينامياتها) تندفع بقوة إلى اللسان من خلال صقلها صقلاً قويًّا بالتثقيف، والدربة، والممارسة والرياضة.

---

(1) الجاحظ؛ **رسالة المعلمين**، ص40.

وقد تحدث الجاحظ عن بطء اللفظ، وذلك من خلال علاقة اللفظ بالمعنى، أو من خلال علاقة الاسم أو (الرسم) – كما يقول الجاحظ – بالمعنى، حيث ضرورة سبق المعنى للاسم؛ فيقول: «وشر البلغاء من هيأ رسم المعنى قبل أن يهيئ المعنى، عشقًا لذلك اللفظ، وشغفًا بذلك الاسم، حتى صار يجُر إليه المعنى جرًّا، ويُلزقه به إلزاقًا، حتى كأن الله تعالى لم يخلُق لذلك المعنى اسمًا غيره ومنعه الإفصاح عنه إلا به» [1].

فواجب على البليغ الحق أن يربط اللفظ بالمعنى الذى يسبقه فى الوجود الإبداعى، فالمعنى يجب أن يتمكن من نفس القائل أولاً حتى تسيطر عليه سيطرة كاملة، لا أن تجهز الألفاظ أولاً، ثم يختار لها المعانى بعد ذلك، ففى هذه الحالة سيكون التعبير بعيدًا عن الانفعال، وسيدخل فى باب العيوب القولية، لا من باب البلاغة، فمن كانت غايته انتزاع الألفاظ حمله الحرص عليها والاستهتار بها إلى أن يستعملها قبل وقتها ويضعها فى غير مكانها.

وبهذا الربط (التقنى) والتمكن تأتى قوة التعبير، وسرعة البديهة، وحركة اللفظ غير البطيئة – ولذلك قال الإمام الشافعى عن دفع الألفاظ وسرعتها، وارتباطها بالمناظرة، والمقدرة عليها، وذلك عندما سُئل عن أقدر الناس على المناظرة فقال: «مَنْ عوَّد لسانه الركض فى ميدان الألفاظ، ولم يتلعثم إذا رمقته العيون بالألحاظ» [2].

3 – **كلالة الحد:** وهى صفة من الضعف القولى تأتى مرتبطة ومتولدة من صفة البطء السابقة، وتعبر – بالتالى – عن ضعف إمكانات البليغ القولية.

4 – **شدة العُجب:** وتتمكن تلك الصفة من القائل غير القادر نفسه على التمكن القولى، فهى صفة الملاحظة المغالطة، حيث يُدخل نفسه فى حيز غير حيزه الحقيقى، وشدة العُجب مدعاة إلى عدم معرفة الأقدار، وأولها قدر نفس القائل نفسه. وبذلك تتولد عملية الإبهام والغموض والبُعد عن واقع المعرفة، لأن طبيعة العُجب تمنع صاحبها من مراجعة نفسه،

---

(1) المرجع السابق؛ ص40.

(2) الإمام الشافعى؛ **الرسالة**، ص35.

ومراجعة ثقافته، وتجديدها، فهو يوهم صاحبه بحصوله على كل أمور العلم، وعند اجتماع هذه الصفة السلبية فيمن يريد التفوق البلاغى، تظهر عليه علامات الحرص والرغبة الشديدة فى دخوله حيز البلغاء - «فهو مع ذلك حريص على أن يُعَدَّ من البلغاء، شديد الكلف بانتحاء اسم البلغاء».

5 – **البلاغة – البيان:** يربط الجاحظ البلاغة والبيان برباط وثيق القوى؛ حيث ساوى بينهما إلى حد التطابق (كما يقول علماء الرياضيات)، ومكمن هذا التطابق يلتقى فى زاوية مهمة وهى زاوية كشف قناع المعنى الذى أشار إليه الجاحظ إشارة صريحة فى كتابه «البيان والتبيين»، وذلك عند حديثه عن البيان، وانتهى بأنه الدلالات الواضحة على معانٍ مخصوصة، وحدد أصولاً وطرقًا تحقق هذه الدلالات؛ وذلك (من اللفظ والإشارة، والخط والعقد– الحساب –، والنصبة).

وفى حديثه عن البلاغة، وتفسيرها نراه يورد قول إسحق ابن حسان بن فوهى فى تفسير ابن المقفع لها - يقول: «وقال إسحق بن حسان بن فوهى: لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحد قط؛ سُئل: ما البلاغة؟ قال: البلاغة اسمٌ جامعٌ لمعانٍ تجرى فى وجوه كثيرة! فمنها ما يكون بالسكوت، ومنها ما يكون فى الاستماع، ومنها ما يكون سجعًا وخطبًا، ومنها ما يكون رسائل؛ فعامة ما يكون فى هذه الأبواب الوحى فيها والإشارة» [1].

فقول (ابن المقفع) فى تعريفه للبلاغة يقوم على عناصر متعددة تُشبه العناصر التى تحدث عنها الجاحظ مع البيان، ولذلك يمكن عمل موازنة بين عناصر البلاغة فى عُرف ابن ا لمقفع، وبين عناصر البلاغة عند الجاحظ - **ويمكن استخلاص عناصر الموازنة هكذا:**

1 – يقول ابن المقفع: (البلاغة) اسمٌ جامعٌ لمعانٍ تجرى فى وجوه كثيرة - فهذا القول يلتقى مع قول الجاحظ عن البيان: بأنه اسمٌ جامعٌ لكل شىء كُشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير. فالالتقاء واضح بين وظيفة البيان (الجاحظية)، ووظيفة البلاغة عند

(1) الجاحظ؛ **البيان والتبيين**، ج1، ص115.

(ابن المقفع)، حيث عملية الكشف دون الضمير، أى إظهار ما خفى فى ضمير الشخص المخاطب، والذى يعتمد على أنواع متعددة لهذا الكشف نفسه.

وعندما يُشير الجاحظ إلى تعدد أدوات البيان، فليس اللفظ وحده هو الأداة المستخدمة فى هذا الكشف، فإن ابن المقفع يلمِّح، بل يُشير إلى تعددية الوسائل المستخدمة فى كشف المعنى أمام المتلقى، فيعبِّر عن ذلك بأن البلاغة، (وما تعنيه بأنها اسمٌ جامعٌ لمعانٍ)، ولكن هذه المعانى تجرى فى وجوه كثيرة، أى أنها لا تجرى فى اللفظ وحده، فهناك وسائل إفصاحية متعددة.

2 – من أمور البيان عند الجاحظ: (الإشارة)؛ والإشارة عند ابن المقفع من الأمور البلاغية المهمة، فهى كذلك قاسمٌ مشترك مهم بين البيان والبلاغة، وهنا تأتى الزاوية الثانية من زوايا التطابق بين البلاغة والبيان.

3 – من أمور البلاغة عند ابن المقفع: (السكوت)؛ والسكوت بالطبع أمر يدعو إلى التأمل والمعرفة، فالسكون – إذن – عنده يلتقى مع موضوع (النصية) عند الجاحظ.. وتلك زاوية ثالثة. وقول ابن المقفع (أن عامة ما يكون من هذه الأبواب الوحى فيها)، أى الإيحاء الداعى للتأمل، وهنا تلتقى وظيفة النصية (الحال) عند الجاحظ، مع وظيفة إيحاء ابن المقفع.

4 – وحديث ابن المقفع عن أنواع التعبير البلاغى، والذى يكون فى الشِّعر، والسجع، والخطب، والرسائل كذلك، يجعلنا نضم هذا الحديث إلى الإلماح بقيمة التعبير باللفظ، وبالكتابة أيضًا، أى الخط الذى تُكتب به المادة التعبيرية (باللفظ). وعندما يقول ابن المقفع (معبِّرًا) بأن: (أى إشارة إلى المعنى هى بلاغة)، فذلك أمر يتضمن فيه الإلماح إلى أبواب أخرى، تدخل فى حيز البلاغة ومقدرتها؛ ومنها العقد الذى اهتم به الجاحظ، وهو بيان يعتمد على القوة الحسابية، فهو محصلة لعدة دلالات واضحة. ورغم كل ذلك فالجاحظ نفسه يربط ربطًا وثيقًا بين البلاغة والبيان فى قوله فى رسالة التربيع والتدوير مخاطبًا أحمد بن عبد الوهاب: «وعلى أننا لا ندرى أىُّ ألسنتك أبلغ، وأىُّ بيانك أشفى؛ أقلمك أبلاغ؟ أم

خطَّـك؟ أَم لفظـك؟ أَم إشـارتك؟ أَم عقـدك؟ وأنـت فى ذلـك فـوقهم – والحمـد لله –، ووحداهم وأُعيذك بالله تعالى».

وبما أننا رأينا أن الفصاحة تساوى البلاغة والبيان، وبـما أننـا أيـضًا رأينـا تـساوى البيـان والبلاغة – فإذن فالأنساق الثلاثة (البيان + البلاغة + الفصاحة) تعبير واحد لعمليـة الإبـداع التعبيرى.

وهذا أمر مهم يسعى الجاحظ لتحقيقه فى موسوعاته العلمية البلاغية.